سورة البيّنة

مدنية وهي تسع آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هي مدَنية في قول الجمهور. وأخرج ابن مردويه عند ابن عباس أنها نزلت بالمدينة. وأخرج ابن مردويه نفسه عن عائشة رضي الله عنها: نزلتْ سورة ﴿لم يَكُنْ﴾ بمكة. (فتح البيان)

وعن أَبِي حَبَّةَ الْبَدْرِيّ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إِلَى آخِرِهَا قَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرِئَهَا أُبَيًّا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُبَيٍّ: إِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أَمَرَنِي أَنْ أُقْرِئَكَ هَذِهِ السُّورَةَ. قَالَ أُبَيٌّ: وَقَدْ ذُكِرْتُ ثَمَّ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَبَكَى أُبَيٌّ. (مسند أحمد، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه)

وقد أخرجه الطبراني وابن مرويه. كما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس. ولكن ليس في رواية البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال ذلك لأُبيّ عند نزولها. كما ليس في روايتهما أيُّ ذِكرٍ لجبريل، وإنما ورد فيها أنه ﷺ قال لأُبيّ: إن الله أمرني أن أقرأ عليك "لم يكن الذين كفروا". (البخاري: كتاب المناقب، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة)

ولأن هذه الرواية قد وردت في مصدر ثقة كمسند أحمد، فلا بد من التسليم أن هذه السورة مدَنية بناءً على الروايات الصحيحة، لأن أُبيّ بن كعب أنصاري من المدينة، والسورة التي نزلت في زمنه لا بد أن تكون مدَنية. والمستشرقون المسيحيون أيضًا يعتبرونها مدَنية، كما قال القسيس "ريفريند ويري". أما المستشرق الألماني "نولدكه" فيقول إنها نزلت بعد سورة البقرة معًا. (تفسير القرآن لِـــ"ويري")

وجدير بالذكر هنا أن "ويري" يقول أن البعض قد اعتبرها مكية، كما ورد في رواية مذكورة أعلاه. ويعني "ويري" من لفظ "البعض" السيدةَ عائشة رضي الله عنها، فهي التي اعتبرتْها مكية. ويقول "ويري" ليس عند عائشة سبب لاعتبار هذه السورة مكية إلا ورودها بين السور المكية. والغريب أن المؤرخين المسيحيين يقولون من ناحية -تماشيًا مع الشيعة- أن القرآن الكريم هو مِن وضعِ عثمان (ﷺ)، أو أن ترتيب سوره -على الأقل- من عثمان، ومن ناحية أخرى يقولون أن عائشة إنما اعتبرت هذه السورة مكية لأنها موضوعة بين السور المكية.

لو كان صاحب هذا القول شخصًا من القرن الثاني أو الثالث الهجري لجاز للقسيس "ويري" أن يقول إن هذا قد اعتبر هذه السورة مكية لأنه وجدها بين السور المكية، لكن صاحب هذا القول هي عائشة التي كانت قد أسلمت قبل زمن خلافة عثمان بزمن طويل، فإذا صحّ اعتراضهم هذا فلا بد لهم من الاعتراف أيضًا أن الترتيب القرآني هو من الرسول ﷺ وهذا ما انخدعتْ به عائشة، إذ كيف يمكن أن تنخدع بترتيب عثمان للمصحف مع أنها -رضي الله عنها- قد قضت حياتها كلها مع الرسول ﷺ؟ فلا شك أن عائشة كانت متمسكة بنظريتها هذه عن القرآن الكريم قبل أن يجمع عثمان القرآن الكريم. فاعتبار عائشةَ هذه السورةَ مكيةً لورودها بين السور المكية دليل على أنها كانت موضوعة بين هذه السور قبل أن تبلغ عائشة سن الرشد، وبالتالي ثبت أن ترتيب القرآن الكريم هو مِن وضع الرسول ﷺ لا مِن وضع عثمان كما يزعم المؤرخون النصارى.

والجدير بالذكر أن "ويري" يعتبر السور القرآنية الأخيرة كلها مكية، ويتّهم عائشة -رضي الله عنها- أنها اعتبرتْها مكية لمجرد ورودها بين السور المكية، مع أن الواقع أن اعتبار "ويري" جميعَ السور الأخيرة مكيةً دليلٌ على جهله. صحيح أن عائشة -رضي الله عنها- اعتبرت هذه السورة مكية، ولكن السورة التالية لها (الزلزلة) مدَنية عند الغالبية (فتح البيان)، ومكتوب فوقها في المصاحف المتداولة أنها مدَنية. ثم توجد بيْن هذه السور الأخيرة سورةُ النصر، وهي مدَنية بالاتفاق، بل هي مما نزل في آخر حياة النبي ﷺ، حيث إنها نزلت عند القُفول من غزوة خيبر عند

بعض الصحابة، بينما قال بعضهم إنها نزلت في مِنى أثناء حجة الوداع (روح المعاني، وفتح البيان). ومعلوم أن النبي ﷺ تُوفّي بعدها بثمانين يوما. فما دامت السور الأخيرة تشتمل على سور مدَنية يقينا، فإنما الجاهل هو الذي يتهم عائشةَ – رضي الله عنها– بأنها اعتبرت هذه السورة مكية لمجرد وجودها بين السور المكية. نحن لا ننكر أن هذه السورة مدَنية –كما هو ثابت من روايات غالبية الصحابة والتابعين وكما قال جمهور المفسرين– إنما نقول إن الكتّاب المسيحيين يهاجمون التاريخ الإسلامي تعصبًا دونما دليل.

الترتيب والترابط:

إن الرابط بين هذه السورة وما قبلها هو أن السورتين الماضيتين تتحدثان عن القرآن الكريم مركِّزتين على محاسنه الذاتية، أما هذه السورة فتتحدث عن تأثيره على الأمم الأخرى، حيث أخبر الله تعالى أنه لو لم ينـــزل القرآن لم يرتدع أهل الكتاب وغيرهم عن سلوكهم الخاطئ.

لقد سُمِّيَ النبي ﷺ في هذه السورة بيِّنةً، لأنه أتى بالقرآن الكريم واعتبر نزوله ضروريًا لإصلاح العالم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

منفكّين: فَكَّ الشيءَ: فَصَلَه وأبانَ بعضَه عن بعض. وانفكّت قدمُه: زالت. وانفكّت إصبعُه: انفرجت. وانفكَّ وَرَكُه: زاغ عن موضعه. وانفكّ الشيءُ المشتبك: انفصلَ. وانفكّت العقدة: انحلّتْ. وانفكّت الرقبةُ من الرِّقّ: أُعتقتْ. وما

انفكَّ يفعل كذا: ما زال، وهو من أخواتِ "كان"، ملازِمٌ للنفي، لأنه يتضمن معناه، فإذا دخل عليه حرفُ النفي تحوّلَ إلى الإثبات. (الأقرب)

البيِّنة: البيّنة مؤنّثُ البيِّنِ -أي الواضحُ الجليّ- الدليلُ والحجة. (الأقرب)

التفسير: يتضح لنا من مطالعة القرآن الكريم أنه قد قسَم الناس قسمين: أحدهما أهل الكتاب وآخرهما المشركون، ولا يخرج عن هذين القسمين أحد من الناس بحسب اصطلاح القرآن الكريم، فإما هو من أهل الكتاب أو من المشركين. لا شك أن هناك أناسًا لا يمكن اعتبارهم في الظاهر من أهل الكتاب ولا من المشركين، كالدهريين مثلا، لكن الواقع أنهم لا يخرجون عن أحد هذين القِسمين، وبحسب اصطلاح القرآن الكريم يمكن اعتبارهم من المشركين. الواقع أن هذا الاصطلاح القرآني ينطوي على إشارة لطيفة بيانها أن القرآن يعلن أن التوحيد لا يمكن أن يتأتّى من دون إلهام ووحي. من الممكن أن يكون أحد مِن أهل الكتاب ومشركًا، ولكن من المحال أن لا يكون أحد من أهل الكتاب ثم يكون موحِّدًا. فالذي ليس من أهل الكتاب لا بد أن يكون مشركا، أما الذي هو من أهل الكتاب فقد يكون موحّدًا وقد يكون مشركا. ذلك أن التوحيد يعني نسبة صفات الله إليه ﷻ بطريق سليم، وهذا لا يستطيعه إلا مَن هو من أهل الكتاب، لأن الصفات الإلهية إنما يمكن أن ينسبها إلى الله تعالى بطريق سليم مَن هداه الوحي الإلهي أو مَن كان عنده علمٌ بالوحي الإلهي. الدهري منكر لله تعالى في الظاهر، لكن الواقع أنه ينسب صفة الخلق إما إلى قانون الطبيعة أو إلى الصدفة، وهكذا فإنه رغم عدم إيمانه بوجود الله تعالى يشرك بالله تعالى عند المؤمنين، حيث ينسب صفة الخلق إلى غير الله. فهو دهري من منظوره، ومشرك من منظور أهل الدين إذ ينسب صفات الله تعالى إلى غيره.

باختصار، إن القرآن الكريم قد قسم الناس قسمين: أهل الكتاب والمشركين. وعندما يستخدم القرآن كلمات أهل الكتاب والمشركين معًا فيعني الناس كلهم. ولقد مهَّدتُ بهذا لأن الموضوع الذي سأبيّنه لاحقًا لا يُفهَم مِن دونه جيدًا.

اعلمْ أن هذه السور تقدّم حلاً لقضية هامة، وهي نصٌ في هذه القضية. إن الكُتّاب المسيحيين يعترضون دائما أن دعوى القرآن -فيما يتعلق بالإيمان- إنما يخص غيرَ أهل الكتاب، ودليلهم في زعمهم هو قول الله تعالى لليهود: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(المائدة:٤٥)، وقوله تعالى للنصارى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(المائدة:٤٨)، فمن هاتين الآيتين يستدلون بأن القرآن الكريم قد لام اليهود والنصارى أنهم لا يعملون بكتبهم، مما يعني أن التوراة والأنجيل صالحيْن للعمل كما ذكر القرآن الكريم، وبالتالي ثبت أنه لا حاجة لأهل الكتاب -على الأقل- للإيمان بمحمد (ﷺ) والتوجه إلى دعوى القرآن الكريم، لأن القرآن إذا كان باطلاً فلا قيمة له، وإذا كان حقًا فهم غير ملزمين بالإيمان به، وبالتالي لا داعي أن يضيعوا أوقاتهم بالتوجه إلى دعوى القرآن الكريم.

(THE CORAN, BY WILLIAM MUIR P. 204-205)

ونردّ عليهم بالآيات التالية:

١- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(الأعراف: ١٥٩)

٢- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(سبأ: ٢٩)

٣- ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾(الأنعام: ٢٠)

ويرد المسيحيون على هذه الآيات بأن القرآن الكريم قد استعمل لفظ (الناس) في كل مكان بمعنى مشركي مكة، فالمراد من جميع الناس كلُّ أهل مكة لا كلُّ أهل الكتاب.

ومع أن قول المسيحيين هذا باطل، إلا أن الواقع أن المفسرين أنفسهم هم مَن قال بذلك، وقد وَقَر قولهم هذا في قلوب الكُتّاب المسيحيين حتى إن المستشرق "سيل" قد ترجم قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾(البقرة:٢٢) هكذا: "يا أهل مكة اعبدوا ربّكم" (THE KORAN; BY SALE V. 1 P.4). فلم يبق لنا إلا

طريق طويل وهو أن نبطل هذه الفكرة مبرهنين على أن لفظ "الناس" في القرآن الكريم يشمل أهل الكتاب أيضا.

أما قوله تعالى ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ في سورة الأنعام، فيقول النصارى بشأنه بأنه يجب تفسيره على ضوء معنى الآيتين السابقتين، إذ المراد منه أهل مكة، أو الذين يولدون فيها فيما بعد.

واعلمْ أن هناك آيات أخرى تدعو أهلَ الكتاب إلى الإيمان بمحمد ﷺ، وهي:

﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(آل عمران:١١١)

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾(هود: ١٨)

﴿وقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(آل عمران:٢١)

﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنعام:٩١)

يقول المسيحيون عن هذه الآيات وما يماثِلها أن كلمة ﴿الأحزاب﴾ قد وردت في القرآن بمعنى القبائل العربية، فلا يمكن أن يراد بها الناس كلهم. أما لفظ ﴿العالمين﴾ فيقولون إذا ورد هذا اللفظ في القرآن بمعنى السيدة مريم وغيرها من بني إسرائيل، فتعنون به بني إسرائيل فقط، وإذا جاز لكم تفسيره بمعنى بني إسرائيل فقط، فلماذا لا يراد بالعالمين القبائل العربية فقط؟ أما الآيات الأخرى فهي تدعو أهل الكتاب إلى الإيمان بمحمد والقرآن، ولكن لا تفرض عليهم هذا الإيمان، وغاية ما يراد بها هو أن أهل الكتاب لو آمنوا بمحمد لكان أكثر خيرًا لهم، لكنهم لن يُعتبروا مجرمين إذا لم يؤمنوا به.

لا شك أن استدلال المسيحيين هذا ضعيف وباطل، ولكننا نضطر لسلوك طريق طويل لإقناعهم.

لقد كان هناك عاملان وراء عثرة المسيحيين وشبهاتهم حول الآيات القرآنية التي تعلن أن محمدا ﷺ رسول الله إلى الدنيا كلها وأن القرآن الكريم نزل لهداية العالم كله، أوّلُهما: أقوال بعض المفسرين الخاطئة، وثانيهما سوء فهم غير المسلمين وعدم

تدبرهم في الأمر، فنجدهم يقولون أن دعوة القرآن أهلَ الكتاب للإيمان به إنما هو حسنة إضافية وليس فرضًا واجبًا عليهم. والحق أن القرآن الكريم لم يفرض عليهم الإيمان به في هذه الآيات المذكور آنفًا فقط، بل قد أعلن صراحة -كما سنثبت لاحقًا- أن أهل الكتاب غارقون في الكفر، ولم يبقَ سبيل لنجاتهم إلا أن يؤمنوا بمحمد رسول الله ﷺ، ويدخلوا في أتباعه.

وبعد دراسة القرآن الكريم عندما نطالع كتب الحديث نجد فيها روايات تؤكد قطعيًا أن محمدا ﷺ رسول الله إلى العالم أجمع.

أولاً: عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: بُعِثْتُ إِلَى الناس كافةً.. الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ (مسند أحمد، مسند عبد الله بن العباس). وكذلك روى أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: "أَمَّا أَنَا فَأُرْسِلْتُ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ عَامَّةً، وَكَانَ مَنْ قَبْلِي إِنَّمَا يُرْسَلُ إِلَى قَوْمِهِ." (مسند أحمد، أول مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما)

لا شك أن هذا الحديث يذكر لفظ "الناس"، ورغم أن المسيحيين يعنون بلفظ "الناس" في الآيات المذكورة أعلاه أهلَ مكة فقط وليس اليهود والنصارى، لكن النبي ﷺ قد ذكر هنا دليلاً لخصوصيته هذه فقال: (وَكَانَ مَنْ قَبْلِي إِنَّمَا يُرْسَلُ إِلَى قَوْمِهِ)، وحيث إنه ﷺ استعمل لفظ "الناس" مقابل "القوم"، فلا بد أن يُراد بالناس هنا العالم كله؛ إذ كان أهلُ مكة قومَه، ولو كان "الناس" بمعنى أهل مكة فقط لم يبق للرسول ﷺ أي خصوصية، لأن الأنبياء السابقين بُعثوا إلى أقوامهم فقط، وإذا كان الرسول ﷺ أيضًا قد بُعث إلى قومه فحسب، فأي خصوصية له في ذلك؟ الواقع أن الرسول ﷺ يقارن هنا نفسه مع الأنبياء السابقين مبيِّنًا أن كل نبي قبله كان يُبعث إلى قومه فقط، أما هو ﷺ فقد بُعث للناس جميعا، مما يعني أنه يخبر أنه لم يبعث إلى قومه فقط، بل إلى الناس جميعا، ولأجل ذلك قال ﷺ: أُرسلتُ إلى الناس كلهم عامة.

وثانيا: قد أُطلِقَ في أحاديث أخرى لفظ "الناس" على غير المشركين أيضًا صراحةً، وهكذا ثبت من استعمال النبي ﷺ أنه لا يعني من الناس مشركي مكة، بل

غيرهم، فقد ورد في حديث "بدر" أن النبي ﷺ لما استشار أصحابه قام المهاجرون واحدا تلو الآخر وقدّموا له المشورة، ومع ذلك ظل النبي ﷺ يقول: "أشيروا عليَّ أيها الناس". فلما كرّر ﷺ قوله هذا قام سعد بن معاذ الأنصاري وقال: يا رسول الله، هل تعنينا وتريد منا أن ندلي برأينا؟ فقال النبي ﷺ: نعم. (السيرة لابن هشام: غزوة بدر الكبرى)

لقد تبيّنَ من ذلك أن شهادة الأحاديث أيضًا تؤكد أن لفظ "الناس" يراد به غير مشركي مكة أيضا، حيث استعمل النبي ﷺ لفظ الناس للأنصار.

أما الحديث الذي ذكر فيه خصوصيته فقد استعمل النبي ﷺ فيه كلمة الناس مقابل القوم خاصةً، مما يدل على أن "الناس" لا يعني هناك قوم الرسول ﷺ، بل الناس جميعا أينما كانوا في العالم.

وهناك حديث آخر عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ سَمِعَ بِي مِنْ أُمَّتِي أَوْ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِي لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ. (مسند أحمد، أول مسند الكوفيين، حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه)

هناك خطأ في هذا الحديث، إذ يوهم ظاهرُه أن الأمة شيء واليهود والنصارى شيء آخر، والواقع أن الراوي قد أخطأ ولم يفهم قول النبي ﷺ، فزاد كلمة (أو يهودي أو نصراني)، وسببه أن الناس يظنون عادة أن الأمة معناها المؤمنون، وبسبب هذا المعنى الراسخ في أذهان القوم عادة ظنَّ الراوي أنه ربما لم يحفظ كلمات الرسول ﷺ جيدا، إذ كيف يمكن أن يعتبر النبيُّ ﷺ اليهود والنصارى من أمته؟ فأضاف الراوي من عنده هنا كلمة "أو". ولكن ظنه هذا خطأ، فهناك روايات في مسند أحمد نفسه تؤكد خطأه. والحقيقة أن كلمات الحديث كالآتي: "مَنْ سَمِعَ بِي مِنْ أُمَّتِي يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِي لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ".

لو كانت كلمة (أمتي) بمعنى الأتباع فقط فكيف يمكن أن يكون بين أتباعه ﷺ مَن لم يسمع باسمه ﷺ؟ هذا خلاف للعقل. فكلمة (أمتي) هنا تبين أنه ﷺ لا يعني أتباعه، بل كل الذين تخاطبهم رسالته ﷺ.

وهناك رواية عن أبي موسى الأشعري توضّح هذا الخطأ الذي وقع فيه الراوي وتبيّن قصد الرسول ﷺ حيث قال: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلا يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ. (مسلم، كتاب الإيمان)

هذه الرواية أصحّ متنًا، لأنها لا تفرّق بين الأمة واليهود والنصارى، بل تعتبر اليهود والنصارى من الأمة، حيث يصرح الرسول ﷺ أن إيمان اليهود والنصارى به ليس مستحَبًّا فحسب، بل إنهم سيدخلون النار إن لم يؤمنوا به.

وهذا الحديث يؤكد أن الراوي قد أخطأ في الرواية السابقة حين أضاف من عنده كلمة (أو) فقال: "مَنْ سَمِعَ بِي مِنْ أُمَّتِي أَوْ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِي لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ".

وهناك رواية أخرى تؤيد هذه الكلمات، فعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلا يُؤْمِنُ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ. (مسند أحمد مسند أبي هريرة رضي الله عنه)

هذا الحديث يبين صراحة أن اليهود والنصارى كلهم ضمن أمة الرسول ﷺ. فلفظ "الأمة" في ذلك الحديث لا يعني أتباع النبي ﷺ، بل كل مَن بَلَغتْهم دعوته.

الحقيقة أن لفظ الأمة له مفهومان: أحدهما المؤمنون والأتباع، والثاني: كل الذين تكون رسالة النبي موجّهة إليهم، والذين لا بد لهم من الإيمان به، وإن لم يؤمنوا به عمليا. وهذا المفهوم الثاني هو المراد من الأمة هنا، كما وضح الحديث الأخير صراحة.

لقد ثبت من هذه الأحاديث أن إيمان اليهود والنصارى بالنبي ﷺ لم يكن مستحَبًّا أو محبّذًا فقط، بل كان فرضًا واجبا عليهم، وأن عدم إيمانهم به يجعلهم من أهل النار. ولكن الجكرالويين والمعتزلة والأحناف قد أنكروا هذه الأحاديث واستخفّوا بها، مما فتح للمسيحيين باب التشكيك في الأمر.

إن الأحاديث والآيات المذكورة أعلاه واضحةٌ في دلالتها للمؤمنين، ولكن لما كان من المقدّر أن يكون عدوّنا واسعَ الاطلاع على اختلافاتنا وأن يواجه الإسلامُ أممًا تدّعي أنهم نقّاد كبار، فكان لزامًا أن يذكر الله تعالى نصًّا صريحا في القرآن بهذا الشأن حتى لا يجد العدو أي فرصة للتهرب.

والآن وقبل أن أتناول تفسير هذه الآية أودّ أن أذكر أمرين عن الأحاديث المذكورة أعلاه:

الأول: أن قول النبي ﷺ "مَن سمع بي" لا يعني مجرد السماع، بل سماع الحجة، فليس المراد أن أحدًا لو علم بدعوى مؤسس الإسلام ولم يؤمن به فهو في النار، ذلك أن العقاب لا ينـــزل بدون إقامة الحجة القاطعة، وقد ورد في الأحاديث نفسها أن بعض الناس لا يُعاقَبون رغم سماع الأمر، فمثلا ورد فيها أن المجنون هو ممن رُفع عنه القلم فلن يعاقِبه الله على أفعاله الجنونية (البخاري: كتاب الطلاق)، مع أنه يسمع حتمًا. فثبت أن مجرد السماع لا يكفي للعقاب، وإلا لعوقب المجنون والمعتوه. وليس هذا الفرق إلا لأن المجنون يسمع، لكنه لا يعقل شيئا، لذلك فإن الذي سمع ذكر الرسول ﷺ دون أن تقام عليه الحجة، فلا يستحق العقاب، لأن العقاب يكون بعد إتمام الحجة وكشف الحقيقة على الإنسان، وما دام هذا الإنسان لم يعِ دعوى الرسول ﷺ فكيف يستحق العقاب؟

والأمر الثاني هو أن الثابت من هذه الأحاديث أن النبي ﷺ قد فرَّق بين الكفر والعقوبة، وهذه قضية هامة ما زالت محلّ نـــزاع بين جماعتنا وبين "البيغاميين" منذ مدة طويلة. حيث يتساءلون: أكافر مَن لم يسمع بمؤسس الجماعة؟ فعندما نقول: نعمْ، هو كافر، يرفع هؤلاء عقيرتهم مثيرين ضجة بأن هذا ظلم عظيم، فكيف يمكن أن يُعتبر مَن لم يسمع حتى باسم مؤسس الجماعة مِن أهل النار. والحق أن هناك فرقًا بين الكافر وبين أهل النار. وقد بيّن النبي ﷺ هنا صراحة أن الكفر والعقوبة أمران مختلفان كليةً. إن كل مسلم سيقول إن من لم يسمع باسم النبي ﷺ هو كافر، ولا أظن أن هناك فرقة واحدة في المسلمين تختلف في هذا الأمر، فتعتبر الذين لم يسمعوا باسم النبي ﷺ مؤمنين. فباستثناء الشريحة القليلة التي لا تستحق الاهتمام

والتي لا تعتبر أهل الكتاب كافرين، فإن جمهور المسلمين يقولون بشكل قاطع إن في الدنيا فريقين: مسلم وكافر. فما هو قول جمهور المسلمين هؤلاء عن المسيحيين أو اليهود أو الهندوس أو الزرادشتيين أو أتباع ديانةِ "الشانتو" اليابانية أو أتباع الديانة الكونفوشيوسية الصينية الذين لم يسمعوا باسم الرسول ﷺ؟ فهل يسمّونهم مسلمين؟ من البديهي أنه لا يُدعى مسلمًا إلا مَن قال لا اله إلا الله وآمن برسول الله ﷺ حقًا أو في الظاهر. فما دام هذا هو التعريف البسيط للمسلم فمن الواضح أن الذين لم يشهدوا ألا إله إلا الله و لم يُوَفَّقوا للإيمان بمحمد رسول الله ﷺ فإنهم يُدْعون كفارًا في كل حال. ومع ذلك يصرح الرسول ﷺ هنا أنهم لا يعاقَبون رغم كفرهم، وإنما يعاقَب مَن سمع به ﷺ.. أي مَن بلغته دعوته ﷺ وأقيمت الحجة عليه ومع ذلك ظلّ على كفره و لم يُرِدْ أن يدخل في الإسلام ويؤمن بمحمد ﷺ.

لقد تبين من ذلك أن الرسول ﷺ قد أعلن حتى عن نفسه –ناهيك عن الأنبياء الآخرين– أن عدم إيمان المرء به لا يجعله من أهل النار –شريطة أن لا تكون الحجة قد أقيمت عليه– غير أنه يجعله كافرًا حتمًا، وإن كان يعيش في أي بقعة من بقاع الأرض، وإن لم يسمع باسمه ﷺ قط، إنه كافر حتما، ولكنه لن يُعاقَب إلا بعد إتمام الحجة. وكأن هذه القاعدة التي بيّنها الرسول ﷺ إنما تخصّ العقوبة لا الكفر. لقد فرّق ﷺ بين الأمرين معتبرًا الكفر والعقاب شيئين مختلفين.

وهذه بالضبط هي عقيدتنا عن المسيح الموعود عليه السلام. فالذي لم يسمع باسمه هو كافر، ولكنا لا نعتبره من أهل النار؛ إذ يمكن أن يختبره الله تعالى في الآخرة فيغفر له بناءً على إيمانه الفطري. إننا لا نستطيع الجزم بصدد عقابه، لكننا مضطرون لاعتباره كافرًا لأن الإسلام يذكر اصطلاحين فقط: مؤمن وكافر، فالذي آمن بنبي فهو مؤمن، ومن لم يؤمن به فهو كافر، سواء كان عدم إيمانه بسبب عدم علمه بالأمر، أو بسبب شرّه. إذا كان عدم إيمانه بنبي بسبب عدم علمه فهو كافر، لكنه ليس من أهل النار، وإذا كان كفره بنبي بسبب شرّه، فهو كافر ومن أهل النار.

الأسف أن "البيغاميين" في هذه الأيام يَضلّون لعدم فهم هذه الحقيقة، فالحق أنهم حين يهاجمونني فإنما يهاجمون الرسول ﷺ، فهو الذي قد بيّن هذا الفرق بين الكفر

والعقاب، ففي أحاديث كثيرة قد فرّق ﷺ بين كفر المرء وبين أن يكون من أهل النار. والظاهر أنه ليس أمام "البيغاميين" إلا طريقان اثنان: فإما أن يقولوا أن الذي لم يسمع باسم النبي ﷺ فهو مسلم وليس كافرا، ولو قالوا ذلك انتهى النـــزاع بيننا وبينهم، فنحن أيضا سنقول -تبعًا لاصطلاحهم هذا- أن الذي لم يسمع باسم مؤسس الأحمدية فهو مسلم وليس بكافر، وفي هذه الحالة سوف يخترعون اصطلاحا جديدا ولا حرج في ذلك، لأننا أيضا عند الكلام معهم سوف نسلّم باصطلاحهم هذا دفعًا للشر. أما الطريق الثاني فهو أن يقولوا أن الكفر والعقاب ليسا متلازمين، فإن المرء يمكن أن يسمى كافرا ولكنه لا يستحق العقاب بالضرورة، وفي هذه الحالة أيضا ينتهي النـــزاع بيننا وبينهم.

بعد هذا التمهيد أودّ أن أبيّن أن الآية قيد التفسير ردٌّ على الذين لا يعتبرون أهل الكتاب كافرين، وكذلك على الذين يظنون أن لا حاجة بأهل الكتاب لأن يؤمنوا برسول الله ﷺ بحسب القرآن الكريم. فقد صرّح الله تعالى هنا أن إيمان أهل الكتاب والمشركين بمحمد ﷺ ضروري، حيث اعتبر الطائفتين كافرتين هنا، وبيّن أن الإسلام -أي قبول دين الحق- موقوف على الإيمان بمحمد ﷺ.

أما قولي بأن هذه الآية ردٌّ على الذين لا يرون ضرورة إيمان أهل الكتاب بالرسول ﷺ بحسب القرآن، فأقصد به الكُتّاب المسيحيين، إذ ليس هدفهم من قولهم هذا إلا أن يثبتوا أن لا ضرورة للقرآن الكريم، وأنه ليس بكتاب يجب على أهل الكتاب أن يؤمنوا به، بل يكفيهم إيمانهم بالتوراة والإنجيل. وأما قولي بأن هذه الآية ردٌّ على الذين يزعمون أن القرآن لا يعتبر أهل الكتاب كافرين، فأعني به بعض المعتزلة الذين يعتبرون أهل الكتاب فريقًا ثالثًا إلى جانب المسلمين والمشركين، وكذلك أقصد به بعض المسلمين ذوي الأفكارِ شِبْهِ الإلحاديةِ الذين يقولون أن القرآن لم يعتبر أهل الكتاب كافرين، والحق أنهم لا يقولون ذلك إلا خوفًا من مطاعن المستشرقين الغربيين المسيحيين لكي لا ينـــزعجوا فيثيروا مطاعن أخرى على القرآن الكريم.

باختصار، تدحض هذه الآية أفكار هاتين الفئتين وتبين بوضوح أنه لا بد لأهل الكتاب والمشركين من الإيمان بالرسول ﷺ، إذ يقول الله تعالى هنا: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.. أي لم يكن بوسع الكافرين -سواء أكانوا من أهل الكتاب أو من المشركين- أن ينفكّوا عن كفرهم ما لم تأتِهم البينة. وقد ذكرنا لدى شرح الكلمات أن الانفكاك يعني الانفصال، فالمنفكين يعني المنفصلين المبتعدين. والسؤال هنا: ما هو الشيء الذي يخبر الله تعالى أن انفصالهم عنه كان محالا قبل أن تأتيهم البينة؟ الجواب إنه الكفر المذكور في الآية.. بمعنى أن الكفار من أهل الكتاب والكفار من المشركين ما كانوا ليتركوا الكفر ويتحرروا منه ما لم يُبعث محمد ﷺ.

وهذا يعني أن الله تعالى يعلن هنا صراحة أن الطائفتين.. أي أهل الكتاب والمشركين.. كلتيهما كفار، وأنه بعد بعثة محمد رسول الله لن يكون مقبولا عند الله أو قائما على الدين الحق إلا الذي يؤمن به ﷺ.

واعلمْ أن "مِن" الواردة في قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ تفيد معاني عدة منها: البيان وابتداء الغاية والتبعيض. وحيث إنها تفيد التبعيض فقد يقول أحد أن "مِن" هنا تبعيضية، بمعنى أن الحديث هنا عن بعض أهل الكتاب والمشركين الذين كانوا كفارًا.. أي ليس كل أهل الكتاب بكافرين، بل بعضهم كافر وبعضهم ليس بكافر.

والجواب: أنه إذا كان مفهوم اعتبار لفظِ "مِن" تبعيضيًا هو أن الحديث هنا عن الذين لم يُسلموا من أهل الكتاب والمشركين، فهذا مفهوم صحيح عندنا.. أي أن الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب هم كفار، وأن الذين لم يؤمنوا من المشركين هم كفار. أما لو قيل أن كون "من" تبعيضية هنا يعني أن الذين لم يسلموا من أهل الكتاب بعضهم كفار وبعضهم ليسوا بكفار، فهذا القول باطل بداهةً، لأن لفظ "المشركين" قد ورد هنا معطوفًا على "أهل الكتاب". فلو كانت العبارة هكذا: "لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكونَ"، لكان المراد أن "مِن" متعلق بـــ "أهل الكتاب" وليس بـــ "المشركون"، لكن الله تعالى قال هنا "والمشركين" ولم

يقل "والمشركون"، مما يعني أن أهل الكتاب والمشركين سواسيةٌ في هذا الحُكم. فثبت أنه لو قيل أن المراد أن الذين لم يسلموا من أهل الكتاب بعضهم مؤمن وبعضهم كافر، للزم القول أيضا أن الذين لم يسلموا من المشركين بعدُ بعضهم مؤمن وبعضهم كافر، وهذا باطل بداهةً، فإن المسيحيين -رغم عدائهم الشديد للإسلام- أيضًا يعترفون أن جميع غير أهل الكتاب -بدون استثناء- مشركون كافرون بحسب القرآن الكريم. فثبت أن اعتبار "مِن" هنا تبعيضية قول باطل، إنما هي بيانية، وتقدير الآية كالآتي: "لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا -الذين هم أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكون- مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ." فلأن لفظ "المشركين" مجرور في الآية فهو معطوف على "أهل الكتاب" لا على "الذين"، إذ لو كان معطوفا على "الذين" لكان مرفوعًا، لذا من المحال أن تُفسَّر الآية بأن بعض أهل الكتاب كافر وبعضهم ليس بكافر، بل المعنى الحتمي هو: أن الكفار، سواء كانوا من أهل الكتاب أو المشركين، كلهم كافرون، ولا يمكن أن ينجو من هذا الكفر إلا إذا آمنوا بالرسول الذي جاءهم.

باختصار، لفظ "كفروا" يشمل الطائفتين أهلَ الكتاب والمشركين كلتيهما. وكما ذكرتُ سلفًا أن من اصطلاح القرآن الكريم أنه يعني من أهل الكتاب والمشركين كلَّ العالم غيرَ الإسلامي، فقد ذكرتُ آنفا أنه لا يوجد في العالم -علاوة على المسلمين- إلا فريقان؛ إما أهل الكتاب أو المشركون، فالمراد من أهل الكتاب والمشركين بحسب اصطلاح القرآن كل العالم غير الإسلامي، ومفهوم الآية هو: من المحال أن يخرج أحدٌ من الكفار - أي من غير المسلمين - مِن كفره حتى يؤمن بمحمد ﷺ.

ومن أمثلة "مِن" البيانية في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾(الحج:٣١)، إذ ليس المراد هنا أن بعض الأوثان رجس وبعضها ليس برجس، بل المعنى: اجتنبوا عبادة الأوثان. وحيث إن "مِن" في آيتنا قيد التفسير أيضا بيانية، وقد وردت حالاً، فتقدير الآية كالآتي: "لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بمن فيهم جميع أَهْلِ الْكِتَابِ وَجميع الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ." وهناك قراءة أخرى لهذه

الآية توضح معناها أكثر، وهي قراءة عبد الله بن مسعود وهي: "لَمْ يَكُنِ أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكون مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ" (فتح البيان). فقد أكدت هذه القراءة أيضا أن "مِن" هنا لا يمكن أن تُعتبر تبعيضية، بالإضافة إلى أن صياغة العبارة تؤكد ذلك، حيث ورد لفظ "المشركين" معطوفًا على "أهل الكتاب".

وهناك أمر هام آخر قد بينه الله تعالى هنا ويمكن أن ينفعنا كثيرا في النقاش الدائر في هذا العصر، وهو: أن الكفر يكون أولاً، ثم يُبعَث نبيّ. وهذا أمر ينكشف على المرء بأدنى تدبر في هذه الآية إذ يقول الله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.. أي ما كان الكافرون –سواء أكانوا من أهل الكتاب أو المشركين– أن يتخلّوْا عن كفرهم ما لم تأتهم البيّنة. فالمذكور قبل "حتى" يسبقه زمنًا في الوقوع، فمثلا إذا قلتُ: لن يخرج فلان من بيته حتى تبلغه رسالتي، فالمعنى أنه يكون جالسًا في بيته قبل أن تبلغه رسالتي. لقد تبين من ذلك أن هؤلاء أصبحوا كافرين قبل أن تأتيهم البينة. لم تجعلهم البينةُ –أي الرسول ﷺ– كافرين، بل كانوا كافرين قبل ذلك. إذن، فثبت أن الكفر يكون أولاً، ثم يأتي النبي، وأن النبي لا يجعل الناس كافرين إنما يُظهر ما فيهم من الكفر.

عندما يُبعَث نبي في الدنيا لا يصبح الناس كفارًا ببعثته، بل الواقع أنهم يكونون كافرين قبلها، كل ما يفعله النبي أنه يكشف الكفر الذي هم فيه. فمِن الخطأ القول أن الناس يصبحون كافرين بإنكار نبي. هذا التعبير غير دقيق وغير محتاط، وإن كنا نستعمله في حديثنا اليومي تبعًا للتعابير اللغوية، وقد استعمله المسيح الموعود عليه السلام بحسب المعتاد، ولكنا لا نعني نحن ولا المسيح الموعود عليه السلام أن النبي هو الذي يجعل أحدًا كافرا، وإنما نقصده –وكذلك حضرتُه عليه السلام– أن النبي يُظهر كفر الناس، وإن جاز القول بحسب العرف العام أن الناس يصبحون كافرين بإنكاره.

باختصار، إن النبي لا يجعل أحدا كافرا، ولا يصبح الناس كافرين بإنكاره، إنما الواقع أن كفرهم ينكشف بإنكاره. ومثاله أن هناك شخصًا لم ير الشمام إطلاقا، لكنه يدّعي أنه أكله، ولا شك أن قوله كذب صريح، لكن كذبه لن ينكشف ما لم نضع أمامه شمامًا ونسأله: ما هذا الثمر؟ فيقول حتمًا: لا أعلم، وهكذا يتضح لنا

كذبه في قوله أنه قد أكل الشمام. فرغم انكشاف كذبه عند وضع الشمام أمامه لن نقول إن الشمام جعله كاذبًا، كلا، بل نقول إن الشمام قد كشف كذبه، وإلا فإنه كان كاذبًا من قبل.

وبالمثل يقول الناس: نحن نؤمن بموسى أو بعيسى. فما هو المراد من قولهم هذا يا ترى؟ هل يعنون أن موسى وعيسى كانا إنسانين؟ كلا، فهذا معروف للجميع، إنما يعنون أننا نعرف صدق نبوتهما. وما دامت عندهم الكفاءة لمعرفة صدق الأنبياء السابقين، فمن اللازم أن يعرفوا فورا صدق نبي يظهر في الدنيا، لأن الشخص الذي يقدر على معرفة فرد من جنسٍ من الأجناس فإنه يقدر على معرفة فرد آخر من نفس الجنس، فمثلاً مَن يعرف المانجو سيقول من فوره إذا وضعت هذه الثمرة أمامه: إنها مانجو ولن يقول إنها بطيخ، وإذا كان يعرف البطيخ فسيقول بدون صعوبة إذا وضعت أمامه بطيخا: إنه بطيخ. كذلك من يعرف النبوة لن يجد صعوبة في معرفة أي نبي، بل إذا جاء نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى أو نبينا محمد ﷺ قال في كل مرة: إني أعرفه؛ إنه نبي الله الحق. ولكن إذا كان لا يعرف أيًّا من هؤلاء الأنبياء حقيقةً ولا يعرف نبوتهم وإنما يدّعي ذلك كذبًا بلسانه فقط، فإذا جاء أمامه محمد ﷺ مثلاً في زي النبوة سيقول إنه كاذب – والعياذ بالله – فعندها ينكشف لنا أن هذا كان كاذبًا في ادعائه أنه يعرف نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى، وإلا فكيف لم يعرف محمدا ﷺ وقد جاء إليه في نفس الزيّ الذي جاء به نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام؟ إن حرمانه من معرفة محمد ﷺ دليلٌ على أنه لم يعرف حقيقة الأنبياء السابقين أيضا، بل كان قوله إني أعرف نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى خِداعًا منه، إذ لم يعرف نفس النبوة عندما ظهرت أمامه في شكل النبي ﷺ.

إذن، إن هذه الآية تبين لنا أن النبي لا يجعل الناس كافرين، وإنما يُظهر ما عندهم من الكفر، إذ كانوا كافرين سلفا. وبعد فهم هذه الحقيقة كم هو عبثٌ نقاشُ الناس بأن إنكار فلان من الأنبياء كفر، وإنكار فلان من الأنبياء ليس بكفر، مع أن الكفر لا يتولد بإنكار نبي، بل يكون قد تولد في قلوب الناس قبل بعثته. الكفر ليس

اسمًا لإنكار نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى -عليهم السلام- إنما هو اسم لإنكار النبوة. إن قولنا أن إنكار موسى أو عيسى أو أي نبي آخر كفرٌ إنما هو على سبيل الاصطلاح فقط، ذلك أن موسى نبي، وإنكاره مرادف لإنكار النبوة نفسها، ولذلك إنكاره يعتبر كفرًا، وإلا فإن إنكار موسى أو عيسى أو محمد العربي بصفتهم أناسًا ليس بكفر، بل إن إنكار موسى النبي أو عيسى النبي أو محمد النبي هو الكفر. وهذا الكفر لا يعني أنه أنكر شخصا، بل يعني أنه أنكر نبوة جميع الأنبياء، إذ لو أنه عرف نبوة نبي واحد حق المعرفة، لما أنكر وكذّب شخصًا آخر إذا جاءه بنفس زيّ النبوة. إن الذي يعرف النبوة يعرف فورا كلَّ مَن يأتي أمامه بزي النبوة، لكن الذي لا يعرف ما هي النبوة، فعندما يأتي أمامه أحد بزي النبوة فإنه يكفِّره بدلاً من أن يؤمن به، وهكذا يؤكد أنه كان كاذبًا وأن ادعاءه بأنه يؤمن بنبوة الأنبياء السابقين كان خِداعًا فحسب. إذا كان يدعي أنه يؤمن بموسى وعيسى، ثم يكفر بمحمد ﷺ إذا جاءه بنفس زي موسى وعيسى، فهذا دليل واضح أنه لم يعرف نبوة موسى ولا عيسى، كل ما في الأمر أنّ آباءه كانوا يقولون أن موسى نبيّ، فآمنَ بنبوته، وأن عيسى نبي، فآمن بنبوته، لكن الحقيقة أنه لم يؤمن بموسى ولا عيسى ولا بأي نبي آخر.

فثبت أن الكفر إنكار للنبوة نفسها، وليس إنكارًا لزيد أو بكر أو عمرو. فلأن الذي يأتي من عند الله تعالى يأتي بنفس زيّ الأنبياء السابقين، فإذا أنكره الناس فقد أنكروا النبوة نفسها ولا يقال إنهم أنكروا مجرد شخص واحد. والآن يمكن لهؤلاء أن يسمّوا مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية بأي اسم، إلا أن الواقع أنه قد عرض على الناس ما عرضه الرسول ﷺ عليهم، وقد لاقى منهم ما لاقاه محمد رسول الله أو غيره من الأنبياء من الناس. هذه حقيقة ساطعة لا يمكن للبيغاميين أيضًا إنكارها؛ فإن المولوي محمد علي نفسه قد كتب أن على الناس أن يتدبروا في صدق مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية بالنظر إلى منهاج النبوة (مجلة "ريويو آف ريليجنز" الأردية، مجلد ٧، عدد يونيو يوليو ١٩٠٨ ص ٢٩٢ و٢٩٧)، مما يعني أنه عليه السلام عرض على الناس ما عرضه النبي ﷺ أو موسى أو عيسى، وأنه لقي من الناس ما

لقيه الأنبياء الذين خلوا من قبل، وإذا كان هذا حقًا، فالذي يكفِّر مؤسسَ الأحمدية عليه السلام بسبب أنه قد عرض على الناس نفس ما عرضه محمد أو موسى أو عيسى عليهم، فإنه يكفِّر محمدا وموسى وعيسى أيضا في الحقيقة. فثبت أن القول أن إنكار النبي الفلاني يجعل الإنسان كافرا وإنكار النبي الفلاني لا يجعله كافرا قولٌ باطل لا منطق فيه. إن النبي إنما يكشف كفر الكافر، ولا يجعل أحدا كافرا حتى يقال أن إنكار نبي من هذا النوع كفر وإنكار نبي من ذلك النوع ليس بكفر. فإما أن يقال أن نبيًا من نوع كذا يأتي عندما يكون الناس مؤمنين، ونبيًا من نوع كذا يأتي عندما يكونون كافرين، وهذا القول باطل بداهة. فالحق أنه بعد فهم قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ لا يبقى هناك مجال للنقاش حول كفر الناس وإسلامهم، لأن هذه الآية تبين أن الناس يكونون كافرين أولاً، ثم يبعث الله مأموره من عنده. أما إذا كان الواقع عكس ذلك عند "البيغاميين" فنحن نطالبهم أن يثبتوا لنا أن الأنبياء من نوع كذا يُبعثون عندما يكون الناس مؤمنين ومن نوع كذا يُبعثون عندما يكونون كافرين. ولكني أرى أنهم لن يجرؤوا على ذلك. إذن، فالذين يثيرون ضجة بأن مؤسس الأحمدية قد جعل الملايين كفارًا إنما يدلّون على جهلهم بتعاليم القرآن الكريم الذي أعلن أن الكافرين سواء من أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ما كانوا ليتخلوا عن كفرهم حَتَّى يأْتِيَهُمُ البيّنة أي الرسول. مما يعني أن النبي لا يجعل أحدا كافرا، وإنما يُبعَث حين يكون الناس كافرين. وإذا كانوا يريدون نقاشنا فعليهم أولاً أن يثبتوا أن نبيًا من نوع كذا يُبعث حين يكون الناس مؤمنين، ونبي من نوع كذا يبعث حين يكونون كافرين، وهو أمر باطل بداهةً كما بينتُ آنفا.

وهنا لا بد من الرد على سؤال ينشأ حول قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ وهو: هل ترك أهل الكتاب والمشركون الكفر بعد أن أتتْهم البيّنة؟ أو هل نجا أهل الكتاب والمشركون بسبب مجيء القرآن الكريم؟

الجواب أن نصّ هذه الآية لا يدل على أن كل أهل الكتاب وكل المشركين سيؤمنون بمحمد ﷺ، بل المراد أنه ما كان بإمكان أي واحد من أهل الكتاب والمشركين أن يكون مؤمنًا حتى يُبعَث محمد ﷺ. فليس مفهوم الآية أن أهل الكتاب والمشركين سيُسلِمون جميعًا إذا جاءهم محمد، بل المراد أنه من المحال أن يكون واحد بالمئة منهم على الحق ما لم يأتهم البيّنةُ، أي رسولُ الله. فالحق أن الاعتراض بأن اليهود أو النصارى أو المشركين لا يزالون موجودين حتى اليوم ولم يؤمنوا بمحمد رغم مجيئه يماثل الاعتراضَ الذي كان يثيره المولوي ثناء الله الأمرتسري ضدنا قائلا: ما الفائدة من مجيء مؤسس الأحمدية ونحن نرى أن النصارى واليهود والهندوس والسيخ وغير الأحمديين كلهم موجودون؟

والحق أن بعثة نبي لا تعني أن الناس كلهم سيؤمنون به ولن يبقى شخص على كفره وشركه. إن بعثةَ نبي إنما تعني أنه يفتح طريق الفوز بحب الله ورضاه وقربه، ويهيئ الفرص للنجاة من الشيطان، فلو آمن به شخص واحد أو عشرة فلا يصحّ القول ما الفائدة من بعثته ما دام مئات الآلاف لا يزالون على كفرهم وشركهم؟ إن فائدة مجيء النبي أنه يفتح للناس باب قرب الله الذي إذا لم يفتحْه استحال أن يصبح شخص واحد مسلما ويحظى بقرب الله وحبّه تعالى. فالحق أن من قال: لماذا لا يزال الكفر موجودا رغم بعثة محمد ﷺ، إنما يدل على جهله بالحقيقة وبِحِكَم الله تعالى وسُنَنِه. لقد أُثير هذا الاعتراض ضد كل نبيّ، وسيظل يثار ضد كل مصلح إلى يوم القيامة؛ إذْ لم يُبعث مصلح رباني آمن به الناس جميعا، أو لم يكن منكروه غالبين في أول الأمر. الحق أن أعداء كل نبيّ يظلون غالبين لفترة تطول أو تقصر بحسب الظروف، ثم يأتي بعد ذلك وقت يصبح النبي فيه من الغالبين. ولا يحدث أبدا أن ينقرض منكروه من العالم كليةً، بل الواقع أن أتباعه أنفسهم يصبحون من المنكِرين في كثير من الأحيان، أعني أنه عندما تنتهي فترة إفاضة بركات النبي أو تستحقّ التجديد فإن أتباعه رغم انتمائهم إليه في الظاهر، يتبعون خطوات أعدائه إيمانا وعقيدة، وبتعبير آخر إن الشيطان والملائكة يسيطرون على أتباعه في وقت واحد، أي أن الملائكة تتحكم بألسنة أتباعه، أما الشيطان فيتحكم بقلوبهم، فتثور

غيرةُ الله مرة أخرى فيبعث نبيًّا بشرع جديد أو بدون شرع، فيحيي الله على يده روح الشريعة، ويفتح لعباده الطريق للتقدم الروحاني ثانية، ولم لا، فهو الرحمن الرحيم.

والجواب الثاني: رغم أن الناس لا يدخلون ١٠٠% في الجماعات الربانية، إلا أنه من الحقائق التي لا يسع أحدًا إنكارها أن رسول الله ﷺ قد فتح طريق الايمان فتحًا رائعًا حتى آمن به ﷺ ملايين الملايين من أهل الكتاب والمشركين ونجوا من كفرهم. فإن أهل الكتاب من مصر وفلسطين والشام أسلموا كلهم تقريبًا. وكذلك دخل نصارى الجزيرة العربية كلهم تقريبا في الإسلام. أما أهل الكتاب الآخرون★ من مجوس وغيرهم فأيضا دخلوا كلهم تقريبا في الإسلام إذ أسلم منهم ما بين ٩٥-٩٦%. كما أسلمَ الملايين من أهل الكتاب من الهند والصين. إن عدد المسلمين في الهند يبلغ مئة مليون، فإذا قلنا أن عُشْرهم قد جاءوا من الخارج فهذا يعني أن تسعين مليونا منهم أسلموا من أهل الكتاب. كما يوجد في الصين حوالي ثمانين مليون مسلم، ولعله لا يوجد بينهم إلا مليون فقط ممن جاءوا من العرب، أما الباقون فكلهم كانوا من أتباع كونفوشيوس.

باختصار، إن الملايين من أهل الكتاب قد آمنوا بالرسول ﷺ ونجوا من الكفر. فالاعتراض: "ما الفائدة من بعثة محمد، فهل آمنَ به جميع أهل الكتاب" هو ضعيف تاريخيا؛ فرسولنا ﷺ لم يفتح طريق الإيمان لاثنين أو ثلاثة من أهل الكتاب، بل آمن به الملايين منهم. أما المشركون، فجميع مشركي الجزيرة العربية دخلوا في الإسلام. كما أثّر التوحيد الذي جاء به الإسلام في البلاد الأخرى حتى تخلّى أهلها المشركون عن الشرك والوثنية بأنفسهم. فلا يوجد اليوم المشركون حقيقةً إلا في الهند أو في القبائل الإفريقية، أما باقي المشركين فكلهم خرجوا من زمرة المشركين ودخلوا في زمرة أهل الكتاب. إن أول مَن تخاطبهم هذه الآية هم الأُمة العربية، وقد قلت إنهم

★ قد استخدم المفسر ﷺ تعبير "أهل الكتاب الآخرون" بالمعنى الأوسع.. أي أهل الديانات الأخرى من مجوس وهندوس وغيرهم.. ممن يؤمنون بنـــزول وحي الله إلى مؤسسيها. (المترجم)

أسلموا جميعا، وهي ثورة عظيمة لم يُحدِثْها أي كتاب سماوي في العالم من قبل. أما الذين لا يزالون محرومين من الإيمان بمحمد ﷺ فهناك نبوءة بشأنهم في القرآن الكريم، ولكن ليس في هذه السورة بل في السورة التي تلتها.

وأرى لزامًا أن أذكر هنا أن المستشرقيْن "سَيل" و"وَيري" قد ترجما لفظ ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ الوارد في الآية قيد التفسير ترجمةً خاطئة، فقالا إن معناه: "لم يَنْتَهوا"، أيْ أن اليهود والنصارى الذين كانوا يأملون بمجيء نبي لم يتخلّوا عن هذا الأمل إلى أن جاءهم الرسول، بمعنى أنه حين جاء الرسول الذي كانوا يتوقّعون مجيئه، قالوا: لم نكن نتوقع مجيء أي رسول". (تفسير القرآن لِـ"ويري" المجلد ٤ ص ٢٦٦، و (THE KORAN BY SALE; V.1 P. 949

مع أن هذا ليس هو مقصود الآية، لأن الموضوع الأول (لمن يكن... منفكين) هنا مرتبط بالموضوع الثاني (حتى تأتيهم البينة)، أي لا يمكن أن تزول الحالة الأولى ما لم تقع الحالة الثانية، ولكن المعنى الذي يذكرونه لا يجعل الحالتين شرطًا ومشروطًا بل هو أقرب إلى كونه بيانًا لحادث. فلا يمكن استنتاج المعنى القائل: "لم ينتهوا".. أي لم يتخلوا عن الأمل بمجيء الرسول إلى أن جاءهم، لأن المعنى الذي يستمدّونه بيان لحادث فقط ولا يفيد مفهوم الشرط والمشروط كما يقتضي هذا الأسلوب اللغوي.

ومما يحيّرني أن بعض المفسرين القدامى أيضًا قد ذكروا هذا المعنى رغم كونهم من كبار العلماء بالعربية. غير أنهم بأنفسهم شكّوا في صحة ما قالوا وفكّروا أنّه إذا كان المراد من هذه الآية أن أهل الكتاب لم ينتهوا عن إظهار عقيدتهم المتعلقة بظهور رسول إلى أن جاءهم فعلاً، فهل كان المشركون أيضا ينتظرون رسولا، حيث ذكر الله تعالى هنا المشركين أيضًا مع أهل الكتاب؟ ثم ردّ هؤلاء المفسرون على هذه الإشكالية قائلين: نعم، كان "بعض" المشركين يتوقعون بعثة رسول متأثرين بعقيدة أهل الكتاب.

والحق أن نص الآية لا يحتمل معنى "البعض"، إذ تذكر مع أهل الكتاب جميع المشركين، لا بعضهم، ومحتوى الآية هو أن جميع أهل الكتاب وجميع المشركين ما

كانوا لينتهوا، فلا يصح القول إنها تتحدث عن بعض المشركين دون بعضهم. وعليه فإن مفهومهم للآية أن الكفار والمشركين لم ينتهوا عن إعلانهم عن بعثة موعود حتى أتاهم، يعني أن جميع المشركين كانوا يتوقعون بعثة رسول، وهذا باطل بداهةً؛ إذ كان بين المشركين من ينكر نـــزول الوحي أصلاً، دعْك أن ينتظروا بعثة نبي من عند الله تعالى.

ثم إذا كان صحيحًا ما ذهبوا إليه من معنى الآية أنهم لم ينتهوا عن أملهم ببعثة رسول حتى أتاهم، فما هو المراد في هذه الحالة من قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ﴾؟ إذ تعني هذه الجملة أنهم ما كانوا ليتخلّوا عن موقفهم من دون أن يأتيهم هذا الرسول، بينما القول بأنهم قالوا عند مجيء هذا الرسول أنهم لم يكونوا ينتظرون أي رسول و لم يكونوا يأملون ببعثة أي مأمور، فليس فيه أي معنى لعدم التخلي عن الموقف، لأن أي واحد يمكن أن ينكر بعثة نبي بإرادته.

ولا يغيبن عن البال أن كلمات الآية بهذا الأسلوب البلاغي توضح أن مشيئة الله تريد أن يتغير الأمر الأول، لأن التعبير: "لم يكن فاعلاً حتى..." يشير إلى رغبة القائل في حدوث ذلك، أما المعنى الذي ذهب إليه المفسرون لا يفيد رضا الله بل عدمه. إذ من المحال القولُ إن الله كان يريد منهم أن يتخلوا عن انتظار الرسول، فهذا يؤدي إلى ضلالهم، والله تعالى لا يحب أن يضل أحد.

لو تدبرنا في تعابير مماثلة في لغتنا لانكشفت الحقيقة، فمثلا لو قال المرء: إن هذا الولد ما كان ليتعلّم ما لم يُستأجر له أستاذٌ خصوصيٌ، فلا شك أنه يعني أنه تعلّم فعلاً بعد استئجار المعلم الخصوصي، كما يشير هذا القول إلى أمنية القائل أيضا، أي أنه أيضًا يريد أن يتعلم هذا الولد، وليس أنه لا يحب تعلّمه.

وعلى ضوء هذا المثال يمكن أن نتدبر المعنى الذي يذكره المفسرون، حيث ستعني هذه الآية حسب تفكيرهم: أنهم لم يتخلوا عن فكرة انتظار بعثة رسول إلا بعد مجيئه فقط. والظاهر أن قائل هذه العبارة يريدهم أن يتخلوا عن انتظار مجيء الرسول، ونسبةُ مثل هذه الفكرة إلى الله تعالى إساءة كبيرة.

قال الواحدي: "ومعنى الآية إخبارُ الله تعالى عن الكفار أنهم لم ينتهوا عن كفرهم وشركهم بالله حتى أتاهم محمد ﷺ بالقرآن، فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم" (فتح البيان). ثم انتابته شبهة بأن هذه الآية تتحدث عن جميع أهل الكتاب وجميع المشركين فقال إنها تتحدث عن الذين آمنوا من أهل الكتاب والمشركين. أي أن الكافرين من أهل الكتاب والكافرين من المشركين لم ينتهوا، أي لم يصرّوا على كفرهم، بل آمنوا. مع أنه قد وردت هنا كلمة ﴿كفروا﴾ بوضوح، لو كان ما ذهب إليه الواحدي صحيحًا لكان ينبغي أن يقال أن بعضًا من أهل الكتاب والمشركين آمنوا بدون إضافة كلمة: ﴿الذين كفروا﴾.

ثم يقول الواحدي: "وهذه الآية من أصعب ما في القرآن نظمًا وتفسيرا، وقد تخبّطَ فيها الكبار من العلماء، وسلكوا في تفسيرها طرقا لا تفضي بهم إلى الصواب" (فتح البيان).

ولا شك أن الواحدي قد أصاب في قوله إن بعض العلماء قد وقعوا في أخطاء في تفسير هذه الآية، بمعنى أنهم فسّروها بما لا تفسَّر به كقولهم: إن اليهود لم يتخلوا عن انتظار نبي حتى جاءهم، ومع ذلك من الخطأ ادعاءُ الواحدي أنه قد أصاب في فهم الآية، لأن المعنى الذي ذكره ليس صحيحا، لأن جملة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ﴾ لا تعني قط أنهم لم يرتدعوا، بل معناه: ما كانوا ليرتدعوا.

على أية حال، إن المفسرين قد واجهوا المشاكل في فهم هذه الآية، لكنها من صنع أيديهم في الواقع، إذ لم يفكّروا في المعنى الحقيقي لكلمة ﴿منفكّين﴾. لو أنهم فسّروا الآية بناء على سياقها لسهل الأمر عليهم، لأن كلمة ﴿كفروا﴾ مذكورة في بداية الآية، فكلمة ﴿منفكين﴾ تشير إلى كفرهم، أي أنهم ما كانوا منفكين عن كفرهم. فلو اعتبروا "عن كفرهم" محذوفا هنا لما عانوا في بيان تفسير الآية، بل لتجلى لهم المعنى وانكشف.

رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

مُطَهَّرَة: طَهَّرَهَ جعَله طاهرا، ومنه التطهير للخِتان. وطهَّر الشيءَ بالماء: غسَله (الأقرب).

وفي المفردات: "الطهارة ضربانِ: طهارةُ جسمٍ وطهارةُ نفسٍ، وحُمل عليها عامة الآيات."

ثم يقول: "وقوله في صفة القرآن ﴿مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾(عبس: ١٥) وقوله ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر:٥) قيل: معناه نفسَك فَنَقِّها من المعايب".

إن صاحب المفردات يختصر كلامه كثيرا، لذلك جمع الآيتين وبيّن معناهما معًا، ومراده: أن قوله تعالى ﴿مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾ أيضا يعني صحفًا سامية منـــزهة عن العيوب.

ثم يقول: "وقوله ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾(الحج:٢٧) وقوله ﴿وَعَهِدْنا إلى إبراهيم وإسْماعيل أنْ طَهِّرا بَيْتِيَ﴾(البقرة: ١٢٦) فحَثَّ على تطهير الكعبة من نجاسة الأوثان".

فبحسب هذين القاموسين يعني التطهير: إزالة النجاسة الظاهرة والنجاسة الباطنة. ونظرا إلى هذين المعنيين سيكون لقوله تعالى ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ خمسة مفاهيم:

١- نقيّة من النجاسة المادية
٢- منـــزّهة عن الزوائد
٣- مغسولة
٤- ذات طهارة باطنة
٥- بريئة من الشرك

والكلمات التي تستعمل في العربية لبيان معنى الطهارة هي كالآتي:
النظافة، الطهارة، الطِّيبة، النقاء، الزكاء، الصفاء، النـــزاهة...

والطهارةُ تكون مادية وروحية أيضا، ويُستعمل لفظ الطهارة مقابل النجاسة. وقد سمى القرآن الماءَ طهورا في قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾(الفرقان:٤٩)، لكنه سمى التراب طيبًا في قوله تعالى ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾(المائدة:٧). وكذلك قال القرآن ﴿طَهِّرْ بَيْتِيَ﴾(الحج:٢٧)، ولكن لا يمكن أن يقال: طَيِّبْ بيتي. مما يوضح أن الطهارة تشير إلى إزالة النجاسة الخارجية، سواء كانت مادية أو روحانية، أما الطِيب فيشير إلى ما في الشيء من جوهر ذاتي، ولا يشير إلى براءته من النجاسة الخارجية، فالعرب لا يستعملون الطِيب بمعنى إزالة النجاسة الخارجية، بل إلى ما يوجد في الشيء من خير، فمثلا قولهم: طَيَّبَ الشيءَ لا يعني أنه أزال منه النجاسة الظاهرية، بل المعنى أنه جعله جيدًا أو وجده لذيذًا، يقال: طيَّب اللحم.. أي طبَخه جيّدًا لذيذًا، أو وجده جيدًا لذيذا. فلو سقطتْ من يد صاحبك لقمةُ اللحم على الأرض فتقول طهِّرْها ولا تقول طَيِّبْها. وأيضا طَيَّبَه يعني: أمَّنه وسكَّنه.

فالفرق بين الطهارة والطِيب أن الطهارة تدل على حفظ الشيء من النجاسة الخارجية، أما الطيب فيدل على ما فيه من خير وطيب كاللذة والجمال والحلاوة أو النفع، فنسمي الشيء الحلو اللذيذ طيّبًا، ولكن لا نسمّيه طاهرا، ونسمي الشيء الجميل طيّبًا ولا نسمّيه طاهرا. وإذا أردتَ أن تأمر أحدا بإزالة النجاسة من الشيء فتقول: طَهِّرْه ولا تقول طَيِّبْه.

باختصار، إذا حفظتَ الشيء من النجاسة الظاهرة، سواء مادية أو روحانية، فهو طاهر، فمثلا إذا نجا قلب الإنسان من وساوس الشيطان فيسمّى طاهرَ القلب، وكذلك إذا قام الإنسان بالغسل فنسمّيه طاهرا أيضا.

والنظافة أيضا تدل على براءة الشيء من النجاسة الخارجية، أو على كونه حسينا وجميلا. يقال: نَظُفَ الشيءُ: نَقِيَ من الأوساخ والدَّنَس وحَسُنَ، وفلان نظيف الأخلاق، أي مهذَّب. فالنظافة تستعمل للأخلاق أو لإزالة الوسخ والدرن، لكنها لا تُستعمل لبيان كون الشيء لذيذا أو لطيفا، وتُستعمل -غالبًا- للطهارة الظاهرة لا الباطنة، وتُستعمل للأخلاق، لكن ليس للطهارة الروحانية.

وهكذا تختلف النظافة عن الطهارة معنًى، لأن الطهارة أكثر دلالةً على النقاء الروحاني والنفساني.

وتشترك النظافة مع الطيبة معنًى من حيث إنها تستعمل للحسن والبهاء أيضا. والنظافة لم ترد في القرآن الكريم، لكن وردت في الحديث بمعناها الأصلي والمجازي. ومثال استعمالها المجازي قول الرسول ﷺ: "نَظِّفُوا أفواهكم" (كنز العمال، المجلد الأول، باب الإكمال رقم حديث ٢٨٠٤).. أي احفظوا ألسنتكم من الكذب والغش والخداع، ولا تقولوا ما يخالف أحكام الله تعالى.

أما كلمة النقاء فلم ترد في القرآن الكريم، لكنها وردت في الحديث، ومعناها الأساسي استخراج لبّ الشيء (الأقرب)، ثم استُعيرت للطهارة والنظافة، فكما أنك تقشر الشيء لاستخراج لبه أو تكسر العظم لاستخراج نخاعه، كذلك تنظّف الشيء لتُظهِر حسنه وجماله.

أما الزكاة فتستعمل لإزالة النجاسة الروحانية، وقد تُستعمل مجازًا بمعنى الطهارة الظاهرة. وقد ورد لفظ الزكاة في القرآن.

أما الصفاء فيُستعمل لإزالة الشوائب. واصطفاء الشيء يعني اختياره. والصفاء يُستعمل للطهارة الظاهرة مجازا.

أما النـــزاهة فمعناها الأصلي البعد، لكنه استُعير لبُعد الشيء عن السوء والفساد.

لقد تبين من هنا أن لفظ الطهارة أفضل هذه الكلمات دلالةً، لأنه أوسع معنى ويفيد المفهومين الظاهري والباطني أيضا، وهو أقوى معنًى من الطيب الذي هو أقرب إليها، لكون القرآن قد استعمل الطهارة كالأصل والطيبَ لما ينوب عنه، فقال الله تعالى عن الماء ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾، بينما قال تعالى عن التراب ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

التفسير: لقد بيّن الله تعالى في الآية السابقة أن أهل الكتاب والمشركين ما كانوا ليتركوا كفرهم حتى تأتيهم البينة. ومن معاني البيّنة: الشيءُ الواضح الجلي، فقوله تعالى ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ يعني أنهم ما كانوا ليخرجوا من كفرهم حتى يأتيهم الأمر الواضح الجليّ. ومن معاني البينة: الدليلُ والحجة، وعليه فقوله تعالى ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ يعني أنهم ما كانوا ليتخلّوا عن كفرهم حتى يأتيهم الدليل والحجة. أما الآية قيد التفسير فقد أخبر الله تعالى فيها أننا لا نعني من البينة هنا أي دليل، أي لا تظنوا أنهم يتركون كفرهم بالأدلة العادية، ولذلك لم يقل الله هنا: "حتى تأتيهم بينة"، بل قال: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ حيث أدخلَ "ال" على البينة للإشارة إلى أنه في الزمن الذي يكثر فيه الكفر والشرك وظلمات المعصية على نطاق واسع لن ينفعكم دليل عادي، بل أنتم بحاجة إلى البيّنة. وهذا العصر مثال للزمن الذي يشير إليه القرآن هنا، فإننا حين نعرض على الناس دعوى المسيح الموعود عليه السلام يردّون علينا: لسنا بحاجة إلى الإيمان به، فيكفينا القرآن الكريم. فالله تعالى ينبّه هنا أن هذا ظن خاطئ، لأن مثل هذا الزمن المظلم يتطلب البينة، ونعني بالبينة رسولاً من الله، أي: في مثل هذه الظروف إن الرسول هو الذي يقوم بإصلاح الناس، ولا يكفي الكتاب وحده لهدايتهم. عندما ينتشر الكفر في كل طرف وصوب ويغفل الناس عن ربهم ويقطعون صلة الحب والوداد معه، فلا ينفعهم كتابٌ سماوي وإنْ كانوا أهل كتاب، بل ينفعهم رسول من الله. إنما ينجيهم مَن يبعثه الله تعالى مقامَ النبوة والرسالة، فيقوم بتطهير نفوسهم بقوته القدسية. فلو قال الله هنا "حتى تأتيهم بيّنة" بالتنكير، لقال الناس أن المراد منها الكتاب، أي أن كتابهم يكفي لإصلاحهم، لكن الله ذَكَر هنا أهل الكتاب أولاً ثم ذكر ﴿البينة﴾، مما يعني أن الكتاب موجود بين ظهرانيهم، لكنه لم يستطع أن يحفظهم من الكفر. كانوا أهل كتاب إلا أنهم تردَّوا حتى دخلوا في الكافرين. فالظن أن الكتاب يكفي لهداية الناس سوء فهم كبير، حيث يخبر الله تعالى هنا أنه لا ينفع في مثل هذه الظروف إلا البينةُ التي تظهر في شكل رسول من الله، أما

غيره من الأدلة والبراهين فلا يجدي نفعا. فرغم وجود الكتاب بينهم ورغم كونه مبرَّأً من التحريف والزيادة، لا تزال بهم حاجة لإيمان جديد بالله تعالى وتعلُّق جديد به سبحانه، ولتجليات جديدة لحب الله تعالى، وهذا لا يتأتى بدون نموذج وبدون آيات جديدة من الله تعالى. لا شك أن الكتاب يكون موجودا عندهم عندئذ، لكنه لا يتكلم معهم، فوجوده وعدمه سيّان للناس، ولكن عندما يُبعَث رسول من عند الله تعالى فيتكلم ذلك الكتاب من خلاله، فتذيب أنواره القلوب ثانية، وتملؤهم بنشوة حب الله تعالى، وتنفخ في إيمانهم حياة جديدة.

الواقع أن هذه الآية تفنّد موقف "الجكرالويين" الذين يقولون بأن القرآن يكفينا ولا حاجة بنا إلى أحاديث الرسول ﷺ. كما تفنّد موقف "البيغاميين" الذين يقولون ما دام القرآن موجودا فما الحاجة إلى أي رسول بعده؟ حيث يعلن الله تعالى أن أفكار مثل هؤلاء القوم خاطئة تماما، إذ لا ينفع عند الفساد المستطير إلا الدليل الذي يظهر من الله تعالى في صورة رسول. عندها لا يكفي الناس كتابهم لهدايتهم، إنما تنفعهم البينة التي تظهر في صورة رسول من الله، إذ تمسّ الحاجة في مثل هذا العصر إلى أن يُبعث من عند الله تعالى شخصٌ حيٌّ يتسبب في ظهور آيات الله ومعجزاته المتجددة، ويُلهِب مشاعر حب الله النائمة في نفوسهم، ويُذكي نار عشق الله في قلوبهم، ويُظهِر للعالم أن ربنا حيّ اليوم كما كان حيًا من قبل، ويكلّم الآن كما كان يكلّم من قبل، ويُري آياته الدالة على صدق أحبّته اليوم كما كان يُظهِرها في الماضي، عندها تنفتح أقفال القلوب، وتظهر آثار الحياة في الناس، إذ ليس هناك عندها سبيل لحياتهم الروحانية إلا هذا.

أما قوله تعالى ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ فقد ذكرتُ من قبل معاني ﴿مطهرة﴾ عند شرح الكلمات، وهي:

- نقيّة من النجاسة المادية
- منـــزّهة عن الزوائد
- مغسولة
- ذات طهارة باطنة

– بريئة من الشرك

ونظرًا إلى المعنى الأول، فيعني قوله تعالى ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ أنه يتلو عليهم صحفًا منـــزهة عن العيوب.. بمعنى أن الصحف السابقة قد تسربت فيها أمور خاطئة تتعارض مع وحي الله تعالى، فلم تعد على حالتها الخالصة النقية كما أنزلها الله تعالى على أنبيائه، أما الآن فمن خلال القرآن الكريم قد أزال الله من تلك الصحف ما لم يكن من عنده إنما أضيف إليها بيد البشر، وأنزل في القرآن الكريم من وحيه السابق ما قد نزل منه تعالى فعلا. إذن، فتلاوة هذا الرسول صُحُفًا مُنـــزهةً عن العيوب يعني أن هذا الكتاب قد أزال العيوب والإضافات البشرية التي تسربت في الكتب السابقة، وقام بإصلاحها.

وهناك معنى آخر لتلاوة هذا الرسول صحفًا منـــزَّهة عن النقائص، وهو أن الصحف السابقة كان تحتوي أمورًا من وحي الله تعالى، لكنها لم تعُدْ صالحة للعمل في هذا العصر، فلم يُنـــزِلْها الله تعالى في القرآن الكريم. لا شك أن تلك الأحكام والتعاليم كانت من الله تعالى، لكنه تعالى نسخها نظرًا إلى الظروف الحالية، فلا مكان لها في هذا الكتاب الكامل الذي نزل الآن.

والمعنى الثاني لِـــ ﴿مطهرة﴾ أنها منـــزَّهة عن الزوائد، وعليه فستعني هذه الآية أن القرآن الكريم لم يأخذ بالأمور التي هي من الزوائد وإن لم تكن من الأمور الفاسدة. ومثال الأمور الفاسدة أن الخمر لم تكن محرمة من قبل، لكن الإسلام حرمها، و لم يكن الربا حراما كلية في الماضي، لكن القرآن حرّمه كلية. ومثال الزوائد أنه كانت للعبادة شروط معينة في الماضي، كأنْ يطهَّر مكان العبادة بوجه خاص، وأن يكون فيه ستائر معينة، وأن يكون وضعه كذا وكذا. هذه الأمور ليست سيئة بحد ذاتها، لكنها زوائد والإسلام رفع كل هذه القيود. لا شك أن الإسلام عيَّن للعبادة مكانًا بسيطا يسمى مسجدًا، لكنه لم يجعله شرطًا لازمًا للعبادة، فإذا لم يكن هناك مسجد، فيمكن للمسلم أن يعبد ربه في أي مكان، أما اليهود والنصارى فلا بد لهم من مقام خاص واستعداد خاص للعبادة. وهذا

الشرط ليس في الإسلام، لأن تعاليمه مختونة، أي خالية من الزوائد، ومشتملة فقط على الأمور التي لا بد منها.

والمعنى الثالث لِـــ ﴿مطهرة﴾ أنها مغسولة نظيفة. والشيء المغسول النظيف يعني أنه لا يزال على أصالته، كل ما في الأمر أنه قد أزيلَ عنه ما وقع عليه من غبار من تأثير خارجي، وعليه فقوله تعالى ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ يعني أن القرآن الكريم قد نجّى من التعقيدات الفقهية التي أحدثها اليهود والنصارى في التعاليم الحقة. وتطرُّقُ التعقيدات الفقهية في الدين بعد مرور زمن طويل أمرٌ طبيعي. الهدف من الفقه استخراج المسائل التي لا توجد في كتاب الله تعالى نصًّا، ولكن عندما يضعف الفقه بمرور الأيام تُغيَّر المسائلُ الأساسية نفسها، ومن نتائج هذا النقص أننا نجد اليوم بين المسلمين قومًا يدْعون إلى الإباحية، وعلى النقيض نجد بينهم مَن يتشددون بالتمسك بظاهر الكلمات. هكذا كان حال اليهود والنصارى في زمن الرسول ﷺ، فكانوا يركّزون جدًا على تعاليم العقوبات، بينما كان النصارى يشدّدون جدًا على التسامح؛ مع أن كلا الأمرين ضروري، لكن الفقه اليهودي والفقه المسيحي قد جعلا الأمرين أحكاما منفصلة. فجاء الإسلام وأزال هذا التعقيد والعوج كلية، وغسل من التعليم الرباني التأثيرَ الفقهي الخاطئ، فأعلن مثلاً أن السنّ بالسنّ والعين بالعين والأذن بالأذن (المائدة:٤٦)، لكنه أخبر أيضا أن في العفو خيرا كثيرا، فعليكم بالعفو أيضا. ثم إنه أعلن أن العفو والرفق جيد جدا، ولكن ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّه﴾(الشورى:٤١).. أي اعفُوا إذا كان في العفو إصلاح المجرم، أما إذا كان العفو سيزيده فسادًا ويشجّعه على المزيد من الجرائم، فلا يجوز لكم العفو عنه. فالتركيز الزائد في التعاليم اليهودية على أن السن بالسن والعين بالعين والأذن بالأذن في كل حال (اللاويين ٢٤: ١٩-٢٠)، إنما هو نتيجة الفقه الخاطئ، إذ لم يعلّمهم موسى عليه السلام ذلك، والتركيز الزائد في المسيحية على العفو القائل: إذا ضربكم أحد على خدّ فأديروا له الآخر (متى ٥: ٣٩)، فهو أيضًا نتيجة الفقه الخاطئ، وإلا فإن المسيح عليه السلام قد

قال صراحة إنه لم يأت لنسخ التوراة (متى ٥: ١٧)، فكيف يمكن إذًا أن يلغي قانونَ العقوبة التوراتي كلية؟

فثبت أن التعقيدات الفقهية التي أحدثها اليهود والنصارى والنقائص التي حدثت في شريعتهم نتيجة الفقه الخاطئ قد أزالها القرآن الكريم كلها، وهذا هو أحد معاني كون القرآن الكريم ﴿صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾، حيث أتى بتعليمات منـــزهة من كل التعقيدات.

والمعنى الرابع لقوله تعالى ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ أنها بريئة من النقائص الظاهرة. ومن أكبر النقائص الظاهرة نقص اللغة، لأن ظاهر الكتاب هو لغته، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ أن لغة القرآن بريئة من النقائص. وهي حقيقة لا يسع أعداء الإسلام إنكارها. يمكن أن يعترض الخصم الغبي أو عديم الإنصاف على لغة القرآن -على سبيل الشاذ والنادر- وإلا فإن عامة اليهود والنصارى العرب قد أشادوا بلغة القرآن أيما إشادة، كما لم يتردد الكُتّاب الغربيون غير المتعصبين من الثناء على لغته. فقوله تعالى ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ أن لغة القرآن منـــزهة عن النقائص فصيحة لطيفة للغاية تجذب قارئها بحسنها وجمالها.

ومن معاني البراءة من النقائص الظاهرة ألا تكون كلماته ثقيلة وتعابيره غير طبيعية، وأن تؤدَّى معانيه بلغة عذبة جذابة. وهذه الميزة توجد في القرآن على ذروتها، فعباراته رائعة لطيفة حتى لا يشعر قارئه ما إذا كان يقرأ نثرًا أم نظما. وقد ذكر أحد الكتّاب المسيحيين أمرًا رائعا في بيان هذه الميزة القرآنية فقال: عندما يُترجَم القرآن إلى لغتنا يقول الناس إنه كلام غير مفهوم لنا، وكيف يمكن أن يفهموا ترجمة القرآن مع أن أسلوبه لا يمكن أن يسمى نثرًا ولا نظمًا. وما دام المترجمون لا يراعون أسلوب القرآن هذا فأنَّى لهم أن يستوعبوا معانيه حق الاستيعاب؟ (New Age Encyclopaedia by Blinda Whitworth: Koran p. 238)

ومن النقائص الظاهرة في الكلام الفحشُ، والقرآن بريء من هذا العيب كلية أيضا. فهناك معانٍ يصعب جدًّا أداؤها إلا بكلمات فاضحة غير محتشمة، لكن

القرآن يؤدي هذه المهمة الصعبة بكل نجاح في كل مرة حيث يبين مراده بكلمات لا تشقّ على ذوي الحسّ المرهف. وعلى النقيض نجد الفيدا الهندوسي والكتاب المقدس وغيرهما من الصحف تذكر أمورًا يصعب جدًّا أن يقرأها الإنسان. فمثلاً ورد في الفيدا أن فلانا من الصلحاء رفض عند ولادته أن يخرج من المخرج العادي النجس، فأخرجوه بشقّ بطن أمه. لا شك أن مثل هذه العبارات الفاحشة تشقّ جدًا على طبيعة الإنسان، لكنها موجودة في الفيدا. أما الكتاب المقدس فإن المسيحيين أنفسهم يعترفون أن بعض عباراته فاحشة للغاية حتى يصعب قراءتها، ولا نستطيع أن نقرأها على أولادنا ونسائنا مطلقا. أما القرآن الكريم فلا يوجد فيه ما يمثّل الصدمة لأصحاب الحس المرهف.

ومن النقائص الظاهرة للكتاب تجريحُ مشاعر الآخرين، فعندما يقرأ الإنسان مثل هذا الكتاب تُجرَح مشاعره ويستاء قلبه ويتأذى بشدة. ولكن ليس في القرآن الكريم ما يسبّب تجريح مشاعر الآخرين. وإذا لم يجد القرآن الكريم بدًّا من استعمال كلمات قاسية فلم يذكرها مع ذكر اسم قوم معين، وإنما ذكرها ذكرًا عاما بأن بعض الناس مصابون بهذه العيوب، ولم يقل إن أهل مكة أو اليهود والنصارى هم كذا وكذا. وعلى النقيض عندما نتفحص الصحف الأخرى نجد هذا العيب فيها بارزا. فقد ورد في الإنجيل أنه لما طالبَ الكتبةُ والفريسيون المسيحَ عليه السلام بآية قال: "جِيلٌ شِرِّيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلا تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلا آيَةَ يُونَانَ النَّبِي" (متّى ١٢: ٣٩). ويستاء اليهود بقراءة هذه الكلمات إذ يرون أنها قد قيلت بحق آبائهم وأجدادهم. وقد سمى المسيح عليه السلام أعداءه أولادَ الأفاعي (متى ١٢: ٣٤)، ولا تزال هذه الكلمات موجودة في الإنجيل حتى اليوم وعندما يقرؤها اليهود يستاؤون منها، إذ استُعملت في حق آبائهم. أما القرآن الكريم فإنه إذا اضطر لذكر مثل هذه الكلمات القاسية فإنه لا يذكر معها اسم أحد كما قلتُ، بل يلمّح بأن بعض الناس أو بعض الشعوب مصابون بهذه العيوب والرذائل، وعندما يقرأ المخالف هذه الكلمات فلا تجرح مشاعره بل يقول من فوره: أنا لست هكذا، وإنما الحديث عن قوم آخرين.

إذن، فمن محاسن القرآن العظيمة أنه ليس فيه ما يجرح مشاعر الآخرين.

ثم إن كلمة ﴿مطهَّرة﴾ إشارةٌ إلى ميزة القرآن الباطنة، لأن أعظم ميزة باطنة لكتاب إنما تكمن في أن يبين الأمور الضرورية بصورة كاملة بدون نقصان. وهذه الميزة توجد في القرآن الكريم بشكل بارز؛ إذ بَيَّن كل قضية تناولَها أيما بيان بدون أي نقصان. باختصار، إن القرآن ليس مقصرًا في بيان ما أراده من مفاهيم ومواضيع، بل قد أفاض في كل قضية وبيّنها تبيانًا بحيث يستوعبها القارئ تماما.

هذه المزايا تبدو بسيطة، لكنها على جانب بالغ من الأهمية في إصلاح الأمم ونهضتها بحيث لا يمكن النجاح من دون هذه المزايا. وهذا هو السبب في أن القرآن الكريم أكثرُ الكتب إصلاحا في العالم.

ومن معاني الطهارة من النجاسة الباطنة أن يكون التعليم طاهرًا ولا يكون فيه ما يخالف الفطرة. والقرآن الكريم يتحلى بهذه الميزة أيضا على أروع شكل. فكل من تدبر في تعليم القرآن قليلا لم يجد مناصا من الاعتراف أنه خالٍ تماما من كل ما يخالف الفطرة. أما الكتب الأخرى فإذا طالعتها لوجدت فيها أشياء وأشياء تتنافى مع الفطرة.

ثم إن من مزايا القرآن الكريم أن تعليمه موافق لكل طبع ومزاج. فعندما يقرأه صاحب أي طبيعة لا يملك إلا أن يتأثر من تعاليمه حتما. لقد جعل الله تعالى في فطرة الإنسان غرائز شتّى؛ من غضب ورحمة، وكلاهما ضروري جدًّا في محله، والكتاب الكامل إنما هو ذلك الذي يعطي تعليماته آخذا في الحسبان كل الطبائع والأمزجة، ولكنه إذا لم يراعِ كل طبع ومزاج فلن يشفِي غليل الناس كلهم، بل سيتمرد عليه كل طبع يجد فيه تعليما خلافه. فمثلا: إن صاحب الطبع الغاضب عندما يقرأ في الإنجيل أنه إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأدرْ له الأيسر، فلا بد أن يتضايق ويقول: هل هذا كتاب سماوي؟ إنه كتاب الخناثى؟ ومن ذا الذي يمكن أن يعمل به؟ أما ذو الطبع الرحيم عندما يقرأ في التوراة أن السن بالسن والعين بالعين والأنف بالأنف، فلا بد أن يتضايق ويقول: لا يمكن أن يكون هذا كتاب الله، فإنه يعلّم هذا التعليم القاسي. أما القرآن الكريم فيراعي كل طبع

ومزاج، فإذا تحدثَ عن السخاء يطمئن به قلب مَن طبعُه الجود والسخاء، وإذا قال إن المال مِن نِعَم الله العظمى وعلى الإنسان ألا يضيعه، فيطمئن به مَن يميل طبعه إلى الاقتصاد ويقول هذا هو الحق والصدق، إذ على المرء ألا ينفق ماله بحيث يؤدي إلى ضعف الأمة. ومن أجل ذلك قد وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه كتاب مكنون، أي أن هناك نسخة ظاهرة لهذا التعليم بين دَفَّتَي القرآن، ونسخة باطنة له قد رسمها كَتَبةُ السماء في عقل الإنسان، فكل ما تقتضيه الفطرة الإنسانية موجود في القرآن، وكل ما يأمر به القرآن موجود في الفطرة الإنسانية. ولأجل ذلك عندما يقرأ المرء القرآن الكريم بتعقل وتدبر يُخيّل إليه أنه لا يتلقى أي أوامر من الخارج وإنما يسمع صوت فطرته وقلبه في هذه العبارات الجميلة. فكأن القرآن لا يبيّن له شريعة جديدة، بل يبدو كأن إبرة الأسطوانة (جرامافون) توضع على قرص دماغ الإنسان فتتحول كتابة فطرته إلى لغة الكلمات، فلا يشق عليه حكم، ولا يستاء من تعليم، ولا يجرح قلبه من كلمة، بل يخيّل إليه أن كل لفظ وحرف ينـــزل من الله الحكيم.

ثم هناك معنى آخر ألطف للفظ ﴿مطهَّرة﴾، نظرا إلى معنى النـــزاهة عن النقائص الظاهرة، أو النـــزاهة عن الشرك.. وبيانه: أن هذه السورة تتحدث عن أمتين، أهل الكتاب والمشركين، فقوله تعالى ﴿صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ فسيعني بالنسبة لأهل الكتاب أن القرآن هو الكتاب الذي يزيل نقائص صحف أهل الكتاب، وسيعني بالنسبة إلى المشركين أنه الكتاب الذي يستأصل الشرك والوثنية. إذن فهناك معنى يخصّ أهل الكتاب نظرًا إلى نزاهة هذا الكتاب من النقائص الظاهرة، وهناك معنى يخص المشركين نظرًا إلى نزاهته من النقائص الباطنة، حيث يعلن الله تعالى أن هذا الكتاب جاء لإصلاح أهل الكتاب والمشركين، فإنه يقوم بإصلاح أهل الكتاب والمشركين، كما يطهِّر صحف أهل الكتاب من النقائص.

الحقيقة أن القرآن الكريم منـــزّه عن الشرك بحيث لا يباريه أي من صحف العالم. هذا هو الطريق الأمثل للإصلاح، إذ لا يتأتى الإصلاح الحقيقي من دون

إعلان جدّيّ واضح، فمِن المسائل الفلسفية الشهيرة أن القضاء على الفساد المستطير يتطلب انقلابًا جذريا. وقد اتبع القرآن ضد الشرك والوثنية استراتيجية لا هوادة فيها، وأعلن عن كل شيء صراحةً غير خائف لومة لائم، وهذا لا يوجد في أي كتاب، ولذلك فشلت الأمم الأخرى كلها في القضاء على الشرك، ونجد أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي لم ينجُ أتباعه من الشرك فحسب، بل قد بدأت الأمم المجاورة أيضا تكره الشرك متأثرة بتعاليم القرآن. كم هي الديانة المسيحية موغلةٌ في الوثنية! لكن بسبب تأثير تعاليم الإسلام ضد الشرك تجد أشدَّ النصارى وثنيةً يقول لك: ليس في ديننا أيضًا أي وثنية ولا شرك. لا شك أنه لا يترك دينه، إلا أنه بدأ يخاف لفظَ الشرك على الأقل، ويقول: لسنا وثنيين. ولما دخل الإسلام الهند أخرج من الأمة الهندوسية – المؤمنة بعشرين وثلاثمائة مليون إله – فرقتين: البراهموسماج وآرياسماج لتُعلنا أن الله أحد.

فالحق أن الصحف المطهَّرة هي القادرة على إصلاح أهل الكتاب والمشركين، وعلى تطهير أمم الأنبياء السابقين بعرض تعاليمهم النقية عليها من ناحية، ومن ناحية أخرى هي القادرة على أن تقضي على شركهم بعرض تعليم التوحيد عرضًا لا هوادة فيه. فلا شك في صدق القرآن الكريم في ادعائه: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾.. أي كان من المحال أن يرتدع أهل الكتاب والمشركون عن كفرهم إلى أن يأتيهم دليل بيّن. وما هو هذا الدليل البيّن؟ هو رسول من الله الذي يولّد في الناس الإيمان بالله بأسوته من ناحية، ومن ناحية أخرى يقرأ على أهل الكتاب من يهود ونصارى وغيرهم صحفَهم منـــزَّهةً عما تسرّبَ إليها من تعاليم مشوّهة، ومن ناحية ثالثة يقضي على عقائد المشركين الوثنية بصولات قوية.

فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

قَيِّمَةٌ: القيِّمُ على الأمر مُتولِّيه، وهي قيّمة: أي متولِّية. والقيِّمةُ: الديانةُ المستقيمة (الأقرب). وورد في المفردات: "وقوله ﴿دينًا قِيَمًا﴾ أي ثابتا مقوِّمًا لأمورِ معاشهم ومعادهم.....وقوله ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾، فقد أشار بقوله ﴿صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ إلى القرآن، وبقوله ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ إلى ما فيه من معاني كتب الله تعالى. فإن القرآن مَجْمَعُ ثمرةِ كتبِ الله تعالى المتقدمةِ."

إذن، فقوله تعالى ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ يعني أن القرآن الكريم جاء متضمِّنًا كلَّ تعليم من تعاليم كتب الأنبياء السابقين التي كانت تستحق البقاء، ومقوِّمًا لمعاش الناس ومعادهم.

التفسير: نظرًا إلى المفهومين للقيِّمة -وهما المتولّية والمستقيمة- سيكون لقوله تعالى ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أربعة مفاهيم:

أولا: أن في القرآن أحكامًا هي متولّية للإنسان. والمتولّي هو مَن يُصلِح الآخر ويراقبه ويحفظه ويوجّه كفاءاته نحو الأعمال السليمة. فالمراد أن في القرآن أحكامًا تحمي الإنسانية من كل ذلة وفساد وعيب، وتربّي الناس تربية سليمة وترشدهم إلى استعمال كفاءاتهم بأحسن وجه، وكأنها تعمل على حماية الفطرة الإنسانية من كل عيب، وعلى تطوير طاقاتها على أحسن وجه.

ثانيا: ومن معاني قوله تعالى ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أن القرآن يقدّم دينًا بريئًا من كل عوج وفساد ويوجّه الناس إلى الطريق المستقيم.

وثالثا: أن القرآن يسدّ كل حاجات الإنسان التي لا بد له منها، سواء في الدنيا أم في الآخرة، ولا يوجد في تعليمه ما يحتاج إلى التغيير، بل كل تعاليمه قائمة ثابتة. فكأن قوله تعالى ﴿صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ يركّز على إزالة ما في التعاليم السابقة من عيوب وحمايتها من الشرك، أما قوله تعالى ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ فيركّز على أن

في القرآن تعاليم لا بد للإنسان منها في المستقبل وإلى الأبد، وهي تعاليم ثابتة لا تتبدل.

رابعا: ونظرا إلى المعنى الذي ذكره صاحب المفردات، فقوله تعالى ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ يعني أن القرآن تضمّن مِن تعاليم الكتب السابقة كل ما كان ضروريا للناس في المستقبل وإلى الأبد، أي أن التعاليم الجيدة في الكتب السابقة كلّها مذكورة في القرآن الكريم.

وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أمرًا عجيبًا لأهل الكتاب الذين كانوا زمن نـــزول القرآن الكريم؛ لقد جاء القرآن لإنقاذهم من الطرق الخاطئة والتعاليم الباطلة ولجمعِهم على يد واحدة، ولكنهم بدلاً من أن ينتفعوا بتعاليم القرآن ويصلحوا أنفسهم ويتنبهوا إلى ما قد تسرّب إلى كتبهم من تعاليم خاطئة انبروا لمعارضته فابتعدوا عن الصدق أكثر. وكأنه يقول: كان هؤلاء قبل نـــزول القرآن معذورين في ما هم فيه من خطأ، ولكن لما جاءهم الحقّ ونـــزلت تعاليم القرآن كان عليهم أن يرجعوا إلى الصراط المستقيم، ولكنهم ازدادوا معارضة للحقّ. لقد كانوا يقولون قبل نـــزول القرآن إن نـــزول الوحي حق، وأن بوسع الإنسان أن يصبح مقربا عند الله تعالى، وأن مجيء النبي والرسول ممكن، ولكن لما جاء القرآن أخذوا يقولون بشدّة أن لا نبي بعد موسى. كان اليهود قبل ذلك يقولون بكل شدة: سيأتي مَن يحمل في يده شريعة نارية بحسب نبوءة موسى، كما كان النصارى يقولون قبل بعثة النبي ﷺ سيأتي "فارقليط" ما بين بعثة المسيح الأولى والثانية (يوحنا ١٦: ١-١٥، ولوقا ٢٤: ٤٩، و Blacks Bible Dictionary; under: Paraclete)، ولكن لما جاء هذا الموعود الذي أخبرَ بمجيئه موسى وعيسى في نبوءاتهما قال هؤلاء

لن يأتي فارقليط ولا غيره. فنبذوا الحقائق التي كانوا يؤمنون بها بدلاً من أن يقتربوا من الحق والهداية ويفرحوا بأن الله تعالى قد بعث محمدًا رسول الله تحقيقًا لنبوءات الأنبياء السابقين.

ونفس المشهد نراه في هذا العصر؛ فإن المولوي محمد قاسم النانوتوي مؤسس مدرسة "ديوبند" -الذي كان قريبًا من بعثة المسيح الموعود عليه السلام- قد قال بكل صراحة في كتابه إن بعثة نبي غير مشرع بعد الرسول ﷺ ممكن (تحذير الناس ص ٣٤)، ولكن حين قال المسيح الموعود عليه السلام نفس الكلام فإن تلامذة النانوتوي وعلماء مدرسة "ديوبند" أنفسهم أخذوا يقولون: كلا، لا يمكن أن يأتي الآن أي نبي، لأن باب النبوة مسدود تماما بعد الرسول ﷺ، فلن يأتي الآن نبي مشرع ولا غير مشرع. فترى أن تلاميذ النانوتوي وعلماء مدرسته أنفسهم يرفضون ما قال المسيح الموعود عليه السلام وما تؤيده كتبهم.

وكذلك كان كبار المشايخ قبْل دعوى المسيح الموعود عليه السلام ينشدون من فوق المنابر أبياتًا بأن عيسى وموسى -عليهما السلام- قد ماتا، لكن لما قال المسيح الموعود عليه السلام بوفاة عيسى عليه السلام نسي المشايخ ما كانوا يردّدونه على المنابر، وأخذوا يصرخون أن المسيح حيّ.

وكذلك كان السبب الأساس لغفلة المسلمين وكسلهم في الماضي أنهم كانوا يعتقدون بأن عيسى عليه السلام سيأتي ويسلب أموال الكافرين ويضعها في أيديهم، فيعيشون في رخاء. ولكن حين أعلن المسيح الموعود عليه السلام أنه هو ذلك المأمور الرباني الموعود على لسان النبي ﷺ أخذ هؤلاء المسلمون يثيرون ضجة بأنه لن يأتي الآن عيسى أو المسيح؛ إذ ليس في القرآن خبر مجيئه، والأحاديث التي تقول بذلك باطلة. فترى أنه كانت العقيدة الأساسية للجميع في الماضي أن عيسى سيأتي ويملأ بيوتهم مالاً، أما اليوم فقد أنكروا كل هذه النبوءات المتعلقة بالمسيح الموعود وقالوا لا حاجة بنا إلى أي مسيح.

هذا ما قال الله تعالى هنا ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.. أي كان ينبغي لأهل الكتاب أن يتدبروا في التعاليم التي يعرضها عليهم

محمد رسول الله، لكن ما حدث هو أنّهم تركوا الحق الذي كانوا يؤمنون به، وضلّوا عن الصدق ضلالاً بعيدا.

وهناك معنى آخر للآية وهو أن الله تعالى قد أعلن في الآية السابقة أن أهل الكتاب والمشركين ما كانوا ليتركوا الكفر ويعودوا إلى التوحيد ما لم يبعث إليهم محمد ﷺ، أما في هذه الآية فقدم دليلا على تلك الدعوى وبيَّن أنهم صاروا فريقين عند بعثته ﷺ: فريق ترك كفره وشركه وتمسكَ بالتوحيد، وفريق عارضه مصرًّا على موقفه السابق. فثبت أن الهدف الذي جاء من أجله القرآن الكريم -أي أن يُخرج جزءا من أهل الكتاب والمشركين من كفرهم- قد تحقّقَ فعلاً.

وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥

شرح الكلمات:

مخلِصين: خَلَصَ الشيءُ خُلوصا وخَلاصا: صار خالصا. وخلَص من التلف: نجا وسَلِمَ. وخلَص الماء من الكدر: صَفا. وخَلَص إليه وبه الشيءُ: وصل، ومنه: "خلصتُ بمستوى من الأرض" أي وصَلْتُ. وأخلصَ السمنَ: أخَذ خلاصتَه. وأخلص في الطاعة: ترَك الرياء. وأخلص له النصيحةَ والحبّ: خلَّصهما عن الغشّ. وأخلص الشيءَ: اختاره. (الأقرب)

وورد في المفردات: "الخالص كالصافي، إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبُه بعد أن كان فيه، والصافي قد يقال لما لا شوبَ فيه..... وقوله ﴿وَنَحْنُ له مُخْلِصُون﴾ فإخلاص المسلمين أنهم قد تبرءوا مما يدّعيه اليهود من التشبيه، والنصارى من التثليث. قال تعالى ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ هو كالأول - أي معناه

كمثل معنى ﴿وَنَحْنُ له مُخْلِصُون﴾ - وقال ﴿إِنَّهُ كانَ مُخْلصًا﴾ فحقيقة الإخلاص التبري عن كل ما دون الله تعالى."

الدِّين: دانَ يدين دِيْنًا وديانةً الرجلُ: عزَّ. دان الرجلُ: ذلَّ؛ أطاعَ؛ عصى - وكأن هذه الكلمة من الأضداد- ودانَ: اعتادَ خيرًا أو شرًّا. ودانَ: أصابه الداءُ. ودان فلانًا: خدَمه؛ أحسن إليه؛ مَلَكَه؛ حمَله على ما يكرَه؛ استعْبده؛ حكَم عليه؛ أذلَّه، وفي الحديث: "الكَيِّسُ مَن دان نفسَه وعمِل لما بعد الموت". والدِّينُ: الجزاءُ والمكافأة؛ الطاعةُ؛ الحسابُ؛ القهرُ والغلبةُ والاستعلاء -هذه الكلمات تستعمل في العربية للغلبة وبينها فرق بسيط- السلطانُ والمُلك والحُكم؛ السيرةُ؛ التدبيرُ؛ اسمٌ لجميع ما يُعبَد به اللهُ -أي الدين اسمٌ لكل الطرق التي يُعبَد اللهُ بها، فمثلا: طُرق العبادة عند المسلمين من صلاة وحج تُسمى دِينًا في العربية، كذلك طريقة عبادة الهندوس والمسيحيين واليهود والزرادشتيين وغيرهم أيا كان شكلها تسمى دينا- الملّةُ؛ الورعُ؛ الحالُ؛ القضاءُ؛ العادةُ؛ الشأنُ -أي الحال الجيدة- قال الله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. (الأقرب)

حُنفاء: جمعُ حنيف، وحنَف الشيءُ حنفًا: مالَ. فالحنيف: الصحيحُ الميلِ إلى الإسلام الثابتُ عليه -الحنيف لا يعني فقط أن يكون الإنسان مائلا إلى الخير بل أن يكون ثابتًا عليه مثابرا- والحنيفُ: كلُّ من كان على دين إبراهيم. وقال الحماسيُّ: الحنيفُ المائلُ عن دين إلى دين، وأصلُه من الحنف في الرجل. وفي "الكليات": في كل موضع من القرآن الحنيفُ مع المسلم فهو الحاجُّ نحو ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾، وفي كل موضعٍ ذُكِرَ وحده فهو المسلم نحو ﴿حنيفا لله﴾. والحنيف أيضا المستقيم." (الأقرب)

أقول: إن ما قال صاحب "الكليات" بأن الحنيف المسلم في كل موضع هو بمعنى الحاج إنما هو تحكُّمٌ وتعنُّتٌ. وقد توصلتُ بالتدبر في آيات القرآن إلى أن الحنيف قد ورد فيه لمن يؤمن بجميع الأنبياء ويتجنب الشرك بكل أشكاله. وكأن الحنفاء قوم يؤمنون بالأنبياء كلهم ولا ينكرون الحق ولا يقعون في الشرك. وأحد

هذين المعنيين إثبات والآخر نفي، فالإيمان بجميع الأنبياء إثبات، وعدمُ إشراك أحد في ذات الله وصفاته نفي. فأرى أن الحنيف لا يعني الحاج، بل يعني: المؤمن بجميع الأنبياء. أما المسلم فمعناه مَن يقوم بصالح الأعمال. والتدبر في القرآن الكريم يكشف لنا أن لفظ الإسلام قد ورد فيه بمفهومين: أولهما: الإيمان الظاهر، وثانيهما القيام بالأعمال الصالحة، فحيثما وردت في القرآن كلمتا (حنيفا مسلما) معًا فمعناهما عندي الراسخُ عقيدةً والكاملُ عملا، وكأنه يؤمن بجميع الحقائق ويعمل بجميع الصالحات.

التفسير: لقد بيّنّا فيما سبق أن مِن معاني الدين الطاعةَ، فالمراد من قوله تعالى ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.. أن يعبدوه مخلصين له الطاعة، بمعنى أن كبار شيوخهم وبانداتهم وقُسُسهم وكَهَنتهم ورهبانهم وعلمائهم الذين كانوا يدْعونهم إلى عبوديتهم هم، وبذلك كانوا يسيئون إلى الإنسانية، فلما جاءهم محمد ﷺ لم يقل لهم تعالوا وكونوا عبيدا لي بدلاً من أن تكونوا عبيدا لرجال الدين الآخرين، إنما قال: فُكّوا سلاسل عبودية الناس وكونوا عبيدا لله خالصين. لم يكن هذا الأمر مما يجب أن يثير حفيظتهم، إذ دعاهم إلى ما فيه خيرُهم بحبّ ولطف، ولكنهم بدلاً من أن يفكّروا في قوله بجدية، ويُحدِثوا تأثيرا طيبا في أنفسهم ثاروا على محمد غضبًا وبدءوا يبذلون كل ما في وسعهم ضده ﷺ. إن المرء إذا نصح أحدا بما فيه نفعُه، شكَره الآخر بأنه أوقفَه على خطئه وأنقذه من الهلاك، ولكن هؤلاء الجهلاء الأغبياء قاموا ضد محمد ﷺ بالعصيّ بحجة أنه يريد أن يفسد عليهم دينهم بدلاً من أن ينتفعوا بنصحه، إذ قال لهم: تعالوا لأنجيكم من العبودية التي ترزحون تحت وطأتها منذ قرون، وأحرر أجسادكم وأرواحكم من ربقة رجال الكهنوت الذين اتخذتموهم أربابًا من دون الله، وتسجدون لهم وتلمسون أقدامهم وتظنون أنهم يقضون حاجاتكم، وهكذا لا تهينون شرف الإنسانية وكرامتها فقط، بل تسيئون أيضا إلى ربكم الذي هو خالقكم ومالككم. فقد أرسلني الله تعالى لأنجيكم من هذه العبودية وأجعلكم عبادا لله خالصين.

وقد قال البعض أن قوله تعالى ﴿وما أمروا﴾ يعني أنهم أُمروا بذلك في كتبهم، لكني لا أرى هذا هو مراد الآية، بل المعنى أن محمدا ﷺ لم يدعهم إلا إلى أن يعبدوا الله مخلصين له الطاعة، وأن يتخلوا عن عبودية الذين اتخذوهم أربابًا من دون الله. هل كان فيما قال لهم ما يتضايقون منه؟ أو هل كان عليهم أن يستاءوا من قوله أم يفرحوا منه ويجتمعوا حوله مسارعين؟ هذا الأمر كان سيحرر النصارى من قسيسيهم واليهودَ من رهبانهم والمشركين من كهّانهم، ولكنهم بدلاً من أن يفرحوا بذلك سخطوا على محمد وحاولوا القضاء على تعاليمه.

الواقع أن الله تعالى قد دلل هنا على ضرورة النبوة، حيث قال لهم: ما دامت عقولكم وقدراتكم الفكرية قد انحطّتْ بحيث لا تميّزون النفع من الضرّ، فمتى يأتي نبي لإصلاحكم إذا لم يأت الآن؟ إنما يُبعث النبي حين يتردى القوم بحيث يفقدون التمييز بين خيرهم وشرّهم، وينطبق عليهم قول الله تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾(الروم:٤٢)، وتموت كفاءاتهم الأخلاقية والروحانية، ومع ذلك يظنون أنهم ليسوا بحاجة إلى أي مصلح. ولذلك يقول الله تعالى لهم: ما دمتم تخاصمون محمدًا مع أنه يأمركم بما فيه خيركم، فهذا دليل على أن هناك حاجة شديدة لمجيء نبي بينكم، وإذا لم يبعث الآن فسوف تهلكون كلية.

إذن، من معاني قوله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أنهم لم يؤمروا إلا أن يعبدوا الله بإخلاص دينهم له.. بمعنى أنهم كانوا من قبل عبيدًا للرهبان والكهان والأساقفة والأثرياء، يرهقون أنفسهم من أجل كبارهم، فجاء الإسلام لينجّيهم من عبوديتهم، لكنهم بدلاً من أن يشكروا مَن أحسن إليهم أعرضوا عنه وخاصموه.

والآن أبين مفهوم هذه الآية بالتفصيل على ضوء المعاني المذكورة في شرح الكلمات.

أولاً: من معاني الدين الطاعةُ، وعليه فالمراد من هذه الآية أنهم ما أُمروا إلا أن يخلصوا طاعتهم لله بحيث لا تشوبها شائبة من طاعة الآخرين.

لكن هذا لا يعني أنه لا يجوز للمرء أن يطيع غير الله، بل المراد: أ- ألا يطيع الله تعالى من أجل الناس، بل يجب أن يخلص طاعته لله تعالى، أي يطيعه من أجله هو؛ ذلك أن كثيرا من الناس يطيعون الله تعالى خوفًا من العباد، فلا يعملون بأحكام الله لأن الله أمرهم بها، إنما لأن عادات قومهم وتقاليدهم تفرض ذلك عليهم. فمثلا عندما يذهب مثل هذا المسيحي إلى الكنيسة أو اليهودي إلى البِيعة أو الهندوسي إلى معبده أو المسلم إلى مسجده، فلا يذهب لأن الله تعالى أمره بالعبادة، بل لأن قومه سوف يستاءون منه إن لم يذهب إلى هناك. وهناك أحكام أخرى يعمل بها البعض عادةً وتقليدا فحسب، أو اتباعًا لأهواء نفسه. فمثلا قد أمر الله تعالى بالرحمة بالضعيف والإحسان إلى المحسن، وهذا الحكم في كل دين، وبناء على ذلك أُمرنا أن نحسن للصغار، وأن نحسن للزوجات ونبرّ بالأصدقاء، ولكن كم من الناس يحسنون إلى أصدقائهم ويربّون أولادهم بلطف لأن الله أمرهم بهذا؟ إن معظم الناس يفعلون ذلك بدافع طبعي أو طمعًا في مدح الناس. وكذلك قد أمر كل دين برعاية الفقراء وحسن معاملة اليتامى والأرامل، ولكن كم من النصارى واليهود والهندوس والمسلمين يفعلون ذلك اليوم ابتغاء مرضاة الله؟ إن معظمهم يفعلون ذلك ابتغاء مدح الناس. وطالما يظل الإنسان مصابا بهذا المرض وبالقَدْر الذي هو يصاب به، فدِينُه يظل ناقصًا إلى ذلك الوقت وإلى ذلك القدْر، إذ يظل قلبه في الأمور اليومية مائلا إلى الناس لا إلى الله، ويخلو من محبة الله الحقيقية التي تتولد بالإنابة إليه تعالى. والحق أنه يكون مشركًا أيضا فَهِم ذلك أم لم يفهم، قَبِله أم لم يقبل، إذ يؤتي الناسَ نصيبًا من الطاعة التي هي حق لله تعالى فقط.

وهذه هي الحكمة وراء قول النبي ﷺ: إذا وضع المرء لقمة في فم زوجته إيمانا واحتسابا فهو صدقة عند الله تعالى (البخاري: كتاب النفقات). فإذا فعل ذلك فرحت زوجته من ناحية، ومن ناحية أخرى يشفي غليل حبّه، ومن ناحية ثالثة سجَّله الله عنده من الذين يعملون الصالحات. وهذه القاعدة تنطبق على أعمال الإنسان كلها. يأمرنا الإسلام بإيثار الدين على الدنيا وأن نكون لله تعالى كليةً،

ولكن معظم الناس مضطرون للقيام بأعمالهم الدنيوية، فكيف يعملون بهذا الحكم يا ترى؟ إنما سبيله ما أشار إليه النبي ﷺ في حديثه هذا.. أي على المرء أن يجعل مشاغله الدنيوية خاضعة لمشيئة الله ومرضاته، فتصبح أعماله كلها عبادة. إنه سيقوم بأعمال الدنيا في الظاهر، وفي الواقع يُعتبر كل عمل له عبادة لله تعالى. وهذا الأمر هو روح التصوّف وعليه يقوم أساسه كليةً، وبالعمل بهذه النصيحة يستطيع الإنسان أن يرتقي إلى أعلى درجات الروحانية ويظل يزداد قربًا من الله تعالى كل حين.

والمفهوم الثاني للآية – نظرًا إلى "الدين" بمعنى الطاعة – هو أن يطيع المرء عبادَ الله لوجه الله تعالى. كان المفهوم الأول أن لا يطيعوا الله تعالى من أجل العباد، أي مخلصين لله طاعتَه، أما هذا المفهوم فهو أن يطيعوا عبادَ الله لوجه الله تعالى، أي مخلصين لله طاعةَ العباد. فالله تعالى لا ينهانا عن طاعة العباد في كل حال، بل الحق أنه تعالى نفسه يأمرنا بطاعتهم في بعض الأحيان حيث قال تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾(النساء:٦٠). فهنا أوجب الله علينا طاعة الرسول وأولي الأمر إضافةً إلى طاعة الله، ولكن بشرط هو ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين﴾.. أي أطيعوا العباد ولكن لوجه الله تعالى، بمعنى أن على المؤمنين أن يطيعوا شخصًا أو جماعةً بالقدر الذي يأمرهم الله بطاعته. عندما سئل المسيح عليه السلام عن الضريبة قال: "أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلّٰهِ لِلّٰهِ" (مرقس١٢: ١٧)، فقوله عليه السلام هذا يعني: أن إخلاص الطاعة لله تعالى لا يعني أن طاعةَ غيرِ الله حرام، بل يعني: عليكم أن تطيعوا من يأمركم الله بطاعته وبقدر ما يأمركم بطاعته، ولو أطاع المرء أحدًا بأمر الله تعالى لعُدَّتْ طاعته له طاعة لله تعالى.

باختصار، إن إخلاص الطاعة لله تعالى يعني أن لا يطيع الإنسان الله تعالى من أجل الناس بل من أجله سبحانه، وإذا أطاع العباد فلا يطيعهم إلا لوجه الله فقط.

يعترض البعض على المسيح الموعود عليه السلام أنه كان مطيعًا للحكومة الإنجليزية. والحق أنه لم يطع تلك الحكومة –وبقدر ما أطاع– إلا عملاً بأمر الله وتعليم الإسلام، لذا فكانت طاعته للإنجليز طاعة لله في الحقيقة. لقد أمرنا الله تعالى

بطاعة الحاكم أو الخروج من البلد، وإلا لخرجنا من طاعة الله. أما المسلمون الآخرون الذين كانوا يعيشون تحت حكم الإنجليز ويطيعون قوانينهم مع إيمانهم أن طاعتهم حرام، فكانوا يقضون كل لحظة في الإثم، إذ كانوا يؤمنون أن طاعة الإنجليز حرام ومع ذلك كانوا يطيعونهم. لو كانت عقيدتهم هذه صحيحة فكان من واجبهم أن يخرجوا من حكم الإنجليز فورا.

ثانيا: والمعنى الثاني للدين هو القهر والغلبة والاستعلاء، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أن محمدًا لم يأمرهم إلا أن يجعلوا غلبتهم وحُكمهم وقفًا لله تعالى، لأنه تعالى هو من يكتب الغلبة، لقوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(آل عمران:٢٧).. أي ما دام الله تعالى هو من يكتب الغلبة والاستعلاء لأحد، فمن واجبكم أن تسخِّروها لله تعالى وليس لكبريائكم وغروركم ولظلم الناس واستعبادهم.

والحق أن النظم السياسية كلها لا تُدمَّر إلا لعدم فهم هذا الحكم الرباني ولعدم العمل به. إن الناس ينسون اللهَ عند الغلبة، وينسون لماذا كتبها الله لهم، فيتقاعسون عن أداء حقوق عباد الله ويظلمونهم. كلما غلب قوم في العالم نسوا الله تعالى ونسوا حقوق عباده التي من أجل أدائها كتب لهم الغلبة. ولكن انظروا إلى النبي ﷺ، فرغم أن المُلك كان بيده إلا أنه لم يعتبر نفسه ملِكًا ولم يسمح لأحد أن يسميه ملِكًا، بل اعتبر نفسه عبدًا لله تعالى بعد الغلبة مثلما كان يفعل قبل الغلبة. لقد ظلّ مشتغلا بالصلاة والصوم وذِكر الله تعالى بعد الغلبة كما كان من قبلها. وإذا كان هناك فرق فإنما هو قول الله تعالى له: ﴿فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾(الشرح:٨).. أي إذا قلّتْ حروب الدنيا فعليك أن تزداد عبادةً لله تعالى. وكان ﷺ يعتبر نفسه خادمًا لعباد الله بعد الغلبة كما كان قبلها. كان ﷺ يساعد الفقراء واليتامى والمساكين حين كان شابًا فقيرا في مكة، ثم عندما أعطاه الله ثراء زوجته -أعني عندما سلّمت له أموالها بعد الزواج- فإنه لم ينفقها لنفسه،

ولم يفكر أنها ثروة زوجته وأن عليه أن ينفقها في راحته، بل أخذ يوزّع تلك الأموال على الفقراء والمساكين. وعندما أعطاه الله المُلك وجعل العربَ والشعوب كلها تابعين له وبدأتْ أموال الضرائب والجزية تقع في يديه، فلم ينتفع منها أبدًا. ثم عندما حانت وفاته ﷺ - وهو الوقت الذي يوصي فيه الناس عادةً بالعناية بأهلهم وعيالهم - قال لأمّته: إن وصيتي الأخيرة لكم هي أن تحسنوا إلى النساء والضَّعَفَة (ابن ماجة: كتاب النكاح). وقال ﷺ في لحظات وفاته بكل كرب وألم مرارًا: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد (البخاري: كتاب المغازي). والحق أن هذه الكلمات القاسية لم تكن موجهة إلى اليهود والنصارى بقدر ما كانت موجهةً إلى أمته، إذ حذّرهم أنهم إذا اتخذوا قبره مكان عبادة لهم فلن يلعنهم الله تعالى فحسب، بل سوف تقع عليهم لعنته ﷺ أيضا. باختصار إنه ﷺ لم يهضم حقوق الله ولا حقوق العباد حتى وقت الغلبة أيضا. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك وسلم، إنك حميد مجيد.

ثم بعد وفاته ﷺ قد ضرب صحابته أروع مثال للعمل بهذا التعليم. لقد كان خلفاؤه الأربعة عديمي النظير في أداء حقوق العباد. لقد تمسكوا بالله تعالى بما لا مثيل له، كما أدّوا حقوق العباد أداءً لا نظير له في العالم. قد يقول قائل هنا: إنهم لم يكونوا ملوكا، إنما كانوا كالرؤساء. لكنا نقول أولاً: من ذا الذي دفعهم ليكونوا رؤساء؟ لا شك أن الإسلام هو الذي منحهم هذا المنصب. فلما تولوه أخضعوه لأحكام الإسلام. وثانيًا: يجب ألا يغيبنّ عن البال أنهم -وإن اعتُبروا رؤساء- فكان انتخابهم للعمر كله وليس لثلاثة أو أربعة أعوام، كما هو الحال اليوم بالنسبة للرؤساء الذين يُنتخبون في النظام الديمقراطي. فلو اعتبرناهم رؤساء ديمقراطيين، فالثابت -بحسب علم النفس وقواعد السياسة- أن هناك فرقًا كبيرا بين الذي يُنتخب رئيسًا لأربعة أعوام أو ثلاثة، وبين الذي يُنتخب للعمر كله. إن الذي يُنتخب لثلاثة أعوام أو أربعة يفكّر دائمًا أنه سيُفصَل عن منصبه بعد مدة ويصبح إنسانا عاديا مرة أخرى، لكن الرئيس الذي يُنتخب للعمر كله يدرك أن من المحال أن عزله عن منصبه محال الآن، وكما أن أهل البلد أيضا يدركون أنه لن

يقابلهم من الآن إلا بهذا المنصب، فالعظمة التي يتمتع هو بها لا يتمتع بها مَن يُنتخب رئيسا لثلاث سنوات أو أربع. ومع ذلك انظروا كم من أموال الشعب تُصرَف على الرؤساء الذين يُنتخبون في النظام الديمقراطي! فالأموال التي تُنفَق على الرئيس الأمريكي لا تنفق على ملِك إنجلترا. أما الخلفاء الأربعة فقد حافظوا على أموال العامة، الأمر الذي يعرفه القاصي والداني. كانوا يتلقون رواتب زهيدة جدًّا للعيش، وكانوا ينفقون أموالهم وعقارهم على الناس. لقد اعترض بعض المسلمين وغيرهم على عثمان ﷺ في آخر عمره، وكان من المطاعن العديدة التي وجهتها إليه الفئة الخارجة عليه أنه أعطى أموالا كثيرة لفلان وفلان، فردّ عليهم عثمان ﷺ: إن لجميع المسلمين الحقّ في أموال بيت المال، ولو أعطيتُهم منها فلا يحق لأحد الاعتراض عليّ، لكني لم أعطهم شيئًا من بيت المال، بل أعطيتهم من أموالي الخاصة ويمكنكم أن تروا سجلات بيت المال. مما يعني أن أمواله الخاصة كانت مصدرًا لبيت المال. فثبت أن هؤلاء القوم قد سخّروا غلبتهم واستعلاءهم لله فقط، وليس لإرساء مجدهم. وهذا ما تخلد به الأمم. ولو أن المسلمين عملوا بهذا التعليم لما أصيبوا بالانحطاط.

ثالثا: والمعنى الثالث للدين هو المُلك والحكم، وعليه فالمراد من الآية أننا لم نأمرهم إلا أن يجعلوا المُلك لله فقط، فيأتمروا بما يأمر به، وينتهوا عما ينهى عنه، ولا يَدَعوا أهواءهم ورغباتهم تؤثّر في أحكام الشريعة. عندما جاء الإسلام كانت هذه الحقيقة الناصعة مرفوضةً بشدة. إن كل مَن يؤمن بنـــزول وحي الله تعالى لهدايته وهداية قومه لا بد له من الاعتراف أيضا أن هذا الوحي ينبغي أن يظلّ محفوظا من تلاعب البشر، ولكن ما نراه على صعيد الواقع هو أن كل أمة كانت قد مزّقت رداء شريعتها عند ظهور الإسلام، ولم يبق من دين الله عندهم إلا القليل جدًّا إذ حلّتْ مكانَه أفكارهم وأوهامهم. وإن ما يفعلونه بشرائعهم حتى اليوم عبرةٌ لمن يعتبر. إنّ أفضل تعاليم المسيح عليه السلام كلها إنما هو: "مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا"(مَتَّى ٥ : ٣٩)، ولكن كم أساء المسيحيون إلى تعليمه هذا! إذا كان أعداء الدول المسيحية قد قصفوا أهلها بالقنابل الديناميتية

فإن المسيحيين لم يبرحوا حتى اخترعوا القنابل الذريّة لضرب أعدائهم. والأغرب من ذلك أنهم يعتبرون كل هذا مطابقا للشريعة. فقبل بضعة أيام لطم أكبر قساوسة الكنائس في إنجلترا أحد زملائه، إذ كان يعتبر القنبلة الذرية آية من آيات الله، ولكن زميله قال: إن فطرتي ترفض أن نحتفل في الكنيسة بهذا الانتصار الحاصل بإلقاء القنبلة الذرية. كان المسيح عليه السلام يقول: إني لم آت إلا لأكمل شريعة موسى عليه السلام، لكن المسيحية جعلت الشريعة الموسوية لعنةً كلها. وهذا هو حال صحف الديانات الأخرى، فقد حرّفوها وبدّلوها ودسّوا فيها من أفكار الناس وأوهامهم حتى صارت ممسوخة مشوّهة. وإني على يقين أنه لو جاء موسى وعيسى وكرشنا وزرادشت -عليهم السلام- إلى الدنيا اليوم لسارعوا إلى القرآن الكريم قائلين: هذا هو تعليمنا الذي يقدّمه القرآن بصورة أجلى، أما الشرائع التي تُنسَب إليهم فسوف يعرضون عنها قائلين: لا ندري مَن نشر هذه التعاليم الفاسدة في الدنيا!

لقد قدّم الإسلام مِن خلال هذه الآية احتجاجا قويا على تلاعب الناس بالشرائع الإلهية فقال ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.. أي يجب أن لا يتدخل أحد في كلام الله تعالى. لا شك أن المسلمين أيضا قد فسدوا كثيرا في العصور المتأخرة، لكنهم لم يخالفوا أمر الله تعالى هذا، فظل القرآن محفوظا حتى اليوم بعون الله وبحسب مشيئته. لا شك أنهم قد نـــزعوا النصوص من سياقها وبتروها كثيرًا في القضايا الفقهية، ولكن لم ولن يتضرر الإسلام بعملية قصّهم وبترهم ضررا دائما، لأن كلام الله محفوظ للأبد.

رابعًا: والمعنى الرابع للدين هو السيرةُ، وعليه فقوله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني أنهم إنما أُمروا أن يعبدوا الله مخلصين له السيرة.. أي ألا يشركوا مع الله أحدا في صياغة سيرتهم، بل عليهم أن يصطبغوا بصبغة صفاته تعالى. وكأن هذه الآية تؤكد صحة الحديث الذي يقول: "تَخلَّقوا بأخلاق الله" (التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني، باب الفاء ص ١١٣، الفقه على المذاهب الأربعة ج١ كتاب الصلاة)، والذي لا يعتبره المحدِّثون قويًا من

حيث سنده كالأحاديث الأخرى. إذن فقوله تعالى ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني مخلصين له ﷻ السيرة، بمعنى أن من المحال أن يسود السلام العالَمَ ما لم يجعل الإنسان أخلاقه تابعة لصفات الله تعالى. يجب أن تكون سيرتكم خاضعة لصفات الله تعالى بحيث لا ينعكس فيها إلا صفات الله تعالى. فليكُنْ كل واحد منكم مثل الله ربًّا ورحمانًا ورحيمًا، وليكُنْ مثل الله تعالى مالِكَ يوم الدين.. أي ينبغي أن لا يكون كالقضاة الذين يحكمون قضاء أعمى، بل يجب أن يكون الإصلاح هو غاية قضائه. ثم يجب أن يكون مثل الله رزّاقًا وغفّارًا وستّارًا ومُحيِيًا للصالحات والشعوب الميّتة ومُميتًا للسيئات والسيئين، وأن يتحلى بغيرها من صفات الله كالحفيظ والباسط والقيوم وما إلى ذلك.

خامسًا: والمعنى الخامس للدين الذي ينطبق هنا هو التدبير. والحقّ أن كل إنسان يبذل جهدًا وتدبيرا قدر المستطاع. وأعني من كل إنسانٍ العاقلَ، وإلا فيوجد في الدنيا كثير من الحمقى الذين يفنون أعمارهم في الأكل والشرب والنوم، وإنهم ليسوا أناسا بل هم دواب، فباستثناء هؤلاء الجهلة الذين هم ليسوا من الإنسانية في شيء، فإن كل إنسان شريف يبذل الجهد ويتخذ التدابير، وكل مَن لم يمتْ قلبه يرغب في مجال من مجالات الحياة، فبعضهم يرغب في العلوم، وبعضهم في الرياضيات، وبعضهم في السياسية، وبعضهم في التجارة، وبعضهم في الزراعة. ولكن التدبر يكشف لنا أنّ جهودهم وتدابيرهم تكون عادةً إما لمصلحتهم الشخصية أو تحقيقًا لغلبة الأمة ونفوذها؛ فإذا كان يرغب في العلوم فيفكّر أن نبوغه في العلوم سوف يمكّنه من اختراع الأشياء الجديدة وإنشاء المصانع، فينتفع نفعا كبيرا. وإذا كان يرغب في الحساب والرياضيات فيقول إنه إذا تقدم في هذا المجال أصبح مهندسا ونال عزا في الدنيا. وإذا كان يرغب في التجارة فهدفه أن يجمع مالاً له ولأهله. وإذا كان شغوفًا بالزراعة فلا يريد منها إلا منفعته الشخصية. وإذا كان راغبًا في السياسة، فإنما هدفه من جهوده منفعته الذاتية إذ يريد أن ينال العزة لا أن يخدم الأمة. لكن بعض الناس يكونون أسمى من مصالحهم الشخصية، فيعملون من أجل مصالح الأمة أكثر من مصالحهم الذاتية،

فإذا كان أحدهم عالمًا فإنما يريد أن تتقوى أمته بهذا الطريق، وإذا كان راغبًا في الرياضيات فإنما هدفه أن يخدم قومه بهذا العلم، وإذا كان يمارس التجارة فإنما غايته أن يدعم أمته، وإذا كان يهتم بالزراعة فليس لأن يحرث الأرض وينتفع بما تدرّ عليه، بل لكي يجعل أُمّتَه تسبق الأممَ الأخرى، وإذا كان يعمل في حقل السياسة، فليس طمعًا في النفوذ الشخصي، بل طمعًا في غلبة أمته.

باختصار، هناك نوعان من الناس، نوع لا يهدف من جهوده وتدابيره إلا المصلحة الذاتية، ونوع آخر يعمل من أجل مصالح الأمة مضحّيًا بمصالحه الشخصية. إنه لا يرغب في التفوق في مختلف العلوم والفنون ومجالات الحياة طمعًا في الصيت والعزّ والمال، بل يقضي حياته في مجاله لتتبوأ أمته مكانة الصدارة بين أمم العالم. والله تعالى ينبه في هذه الآية أن الناس حين يعملون بهذه الأهداف فلا بد من أن تتولد فيهم العداوة، وبالتالي لا بد أن يكون مصيرهم الهلاك والدمار. ولذلك على الإنسان أن يجعل جهوده وتدابيره كلها لوجه الله تعالى خالصة. فإذا كان يحب الرياضيات فليتقدم فيها ما استطاع، وإذا كان يريد النبوغ في العلوم واختراع أنواع المخترعات فلا بأس، وإذا كان يرغب في التجارة لكسب المال فليفعل، وإذا كان يحبّ الزراعة أو يتشوق للتوغل في دراستها من أجل الاكتشافات الجديدة فلا بأس بذلك، لأن الله تعالى هو الذي قد خلق هذه الميول والعواطف في الإنسان، ويريد ألا يجعله عاطلا، ولكن ينبغي على الإنسان أن تكون جهوده وتدابيره كلها لوجه الله تعالى. فإذا أصبحت جهوده كلها خاضعة لمرضاة الله تعالى فلن يحرم بعضَ عباد الله من ثمرات جهوده. فإذا بذل جهوده وقام بأعماله لوجه الله تعالى فلن يكون غرضه القضاء على البلد الآخر، ولن تريد إنجلترا القضاء على فرنسا أو تريد أمريكا تدمير روسيا، بل تنصرف جهود المرء إلى مصلحة بني جنسه، ولن تنشأ في العالم منافسة خاطئة وعداء بين الأمم. إنما سبب الدمار كله أن الإنسان يحاول غصب حقوق الآخرين لمنفعته الذاتية أو منفعة أمته غاضًّا الطرف كليّة أن عليه أن يشرك جميع بني جنسه في ثمار جهوده.

إن هذا العصر عصر العلم، ومع ذلك نرى أن البعض إذا نال نصيبا من إرث آبائه أصبح غافلا وجلس في بيته عاطلا لا يحرك ساكنا ولا ينجز عملا ويقول: لا حاجة بي للعمل الآن، فقد وجدتُ أموالا وعقارا كبيرا من آبائي، وليس عليّ إلا أن آكل وأشرب وأنام. إنه لا يفكر أنه لم يُخلَق للأكل والشرب والنوم، بل قد جعل اللهُ الإنسانَ في الدنيا خليفةً له لقوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة: ٣١)، وما دام هو خليفةَ الله في الأرض فكيف يجوز له أن يجلس عاطلا. إذا كان الله عاطلا -والعياذ بالله- فلا حرج أن لا يعمل الإنسان لأن الله ﷻ عاطل لا يعمل، لكن الله تعالى ليس عاطلا، بل لا يزال يعمل متجليًا بجميع صفاته في العالم دائما، فيرزق بعضا، ويحيي بعضا، ويميت بعضا، ويغفر لبعض، ويرحم بعضًا، ويعذّب بعضًا، ويقدم بعضًا ويؤخر بعضًا في سباق الحياة. فكل يوم وليلة هو في شأن. وهذا ما يريده من الناس.. أي يظلّوا منهمكين في العمل، ولا يركنوا إلى الغفلة والكسل أبدا. ولكن المؤسف أن الناس إذا تيسرت لهم أسباب الرخاء قليلا أخلدوا إلى الكسل، قائلين لا حاجة بنا للعمل الآن. وفي بلادنا عادة شائعة بأنك إذا قلتَ لشخص ميسور الحال: كيف حالك؟ أجابك: الحمد لله، عندي الكثير من الأكل والشرب وليس بي حاجة للعمل الآن. مع أن الواقع أن عمل الإنسان يكون بحسب ما عنده من وسائل، فمن كانت وسائله أقلَّ أنجزَ أقلّ، ومن كانت وسائله أكثر عمل أكثر. وإذا كان الله تعالى قد أعطى هؤلاء وسائلَ أكثر فعليهم أن يكونوا أكثر عملا من غيرهم، لا أن يجلسوا عاطلين قائلين: لا حاجة بنا إلى العمل الآن بحجة أن عندهم الكثير من الوسائل وأسباب المعاش، وأنه يجوز لهم الآن قضاء أيام حياتهم في الأكل والشرب والنوم! هذه العقلية لعنة مسلَّطة على أهل الهند، وقد أخّرتهم كثيرًا عن باقي الأمم في سباق الرقيّ. إنهم يرون أن الجهد والعمل اسم للمنفعة الشخصية ومنفعة الأسرة، وأنهم ليسوا مستعدين لإشراك بني نوع جنسهم في ثمار جهودهم. أما الأوروبيون فقد تخلّصوا من هذه النقيصة رغم وجود عيوب أخرى كثيرة فيهم. فالجميع عندهم يعمل، ثريًا كان أو فقيرا، صغيرا أو كبيرا. يوجد بينهم أثرياء كبار، ومع

ذلك لن تجد بينهم أحدًا بدون عمل. لا شك أن في كل قوم أفرادًا كسالى، فباستثناء هؤلاء فإن الغالبية منهم يعملون رغم أنهم يملكون البلايين، كما تعمل زوجاتهم وأولادهم وغيرهم من أفراد أسرتهم، ولا يعتبرون العمل نقيصة وعيبًا. غير أنهم يعملون إما لمآربهم الشخصية ورغباتهم الذاتية أو من أجل ازدهار بلدهم ورخائه بنية أن تتفوّق أمتهم على غيرها، فيصابون بالمفاسد أكثر رغم حبهم للعمل. كان بعض الناس لا يعملون في الماضي أيضًا نتيجة امتلاكهم المال والعقار من آبائهم، ولكن المفاسد كانت أقلّ، إذ لم يكن عندهم الإحساس بتفوّق الأمة، وإنما كانوا يفكّرون في مصالحهم الشخصية، أما اليوم فأغلبية الناس يؤْثرون مصلحة الأمة على مصالحهم الشخصية، ويقومون بأعمالهم من أجل النهوض بأمتهم لتصبح أكثر غلبة وقوة من غيرهم، وهذا هو السبب وراء انتشار العيوب والمفاسد بكثرة رغم حبهم للعمل. ومن أجل ذلك ينصحنا الله تعالى هنا بأن لا بأس أن تتخذوا التدابير، بل يجب أن تتخذوها، لأننا قد خلقناكم للعمل، ولكن نوصيكم أن تعملوا مخلصين لنا الدين.. أي اجعلوا كل جهودكم وتدابيركم خالصة لوجه الله تعالى دون التفكير في راحتكم الذاتية أو مصلحة أمتكم، بل يجب أن تكون جهودكم لوجه الله ومرضاته.

ما أروعَه مِن مبدأ! فإن العمل به يرسي السلام في العالم، لأن الله تعالى من جهة قد وضع الأساس للقضاء على البطالة إذ صرح للناس أنه لا يحب أن يبقى أحد منكم عاطلا دون أن ينجز شيئا في الدنيا، ومن جهة أخرى أعلن ﷻ أنه لا يحب أن تكون - في هذا الأمر - بينهم منافسات زائفة. عليهم أن يعملوا ويعملوا جيدا، ولكن يجب أن لا يخلقوا منافسات زائفة ولا يحاولوا تدمير البلاد والأمم الأخرى، بل عليهم أن يعملوا كل عمل لوجه الله تعالى. والظاهر أن من يقوم بكل عمل لوجه الله تعالى لا لمصلحة ذاتية ولا لتفوُّق أمته على الأمم الأخرى، فلا يمكن أن يتخذ أي خطوة لسلب حقوق الآخرين، ومن أجل ذلك نجد أنه في زمن الحكومة الإسلامية -أعني حين كان حكم المسلمين قائمًا بحسب تعاليم الإسلام- لم يحاول المسلمون قمع الشعوب الأخرى. لقد حكم المسلمون

ثمانية قرون، ولكنهم لم يسعوا في تلك الفترة الطويلة من الحُكم إلى تدمير البلاد المجاورة، مع أنهم كانوا يمتلكون القوة، ولو أرادوا لدمَّروا اقتصاد البلاد الأخرى بسهولة، لكنهم رغم قوتهم وحكمهم وملكهم الذي استمر ثمانية قرون لم يحاولوا ولا مرة واحدة إضعاف الدول المجاورة وسحقها. وأكبر مثال على ذلك هو بلد الحبشة، لقد استمرت دولة الحبشة في جوار المسلمين ثلاثة عشر قرنا دون أن يُنال من حريتهم. وعلى النقيض نرى أن المسيحيين نالوا الغلبة على إفريقيا لقرن من الزمان فقط، فسحقوا دولة الحبشة، مع أنهم كانوا إخوانهم في الدين، وكانوا أحقَّ ألاّ يسطو هؤلاء على بلادهم وينهبوها. لكن المسيحيين لم يبالوا بذلك ولم يراعوا مبادئ العدل والأمانة والتسامح، بل هجموا على البلاد الضعيفة وأخضعوها مغرورين بغلبتهم. وهذا دليل على أن المسلمين كانوا يبذلون جهودهم كلها ابتغاء مرضاة الله تعالى كما أمرهم القرآن الكريم، وحيث إن الحبشة وأوغندا وغيرهما من البلاد الإفريقية لم تتعرض للمسلمين، فلم ينظر إليها المسلمون بسوء رغم امتلاكهم القوة ورغم كونها بجوارهم. وقد ظلّ المسلمون متحلّين بهذه الميزة حتى في زمن انحطاطهم الشديد، فلم يحاولوا سحق الأمم الأخرى، أما الأوروبيون فحيثما نالوا الغلبة سحقوا الآخرين. وأقول دائمًا إن مَثَل الشعوب الغربية كمثل الصبيان الذين إذا وجدوا شيئا أثناء اللعب يقولون: لقد وجدتُ شيئًا مرميا، والمرمي لله وليس لأحد، فأنا أحقُّ به. فإن الغربيين يستولون على بلاد الآخرين، ثم يقولون لقد وجدناها كشيء مرمي فنحن أحق به، ومع ذلك يدّعون التحلي بالمُثل والأخلاق قائلين: لقد استولينا على هذا البلد من أجل إرساء السلام فيه ولتعليم أهله التحضّر والتهذيب. ولكن الله تعالى يعلن أن هذا الادعاء باطل. إذا كنتم ذوي مُثل ومبادئ سامية فعلاً، ولم تريدوا منفعة ذاتية أو قومية، فكان من واجبكم ألا تستولوا على البلاد الأخرى ولا تنتفعوا من ثرواتها، بل عليكم أن تعودوا إلى بلادكم بعد تربية أهلها وتعليمهم. إن ما فعلتم كان يجب أن تفعلوه كلَّه ابتغاء مرضاة الله تعالى منـــزهين عن أية شائبة من شوائب الأنانية وأهواء النفس. لكن كل ما فعلتم إنما فعلتموه لأنفسكم، وهذا لن يرسي السلام في العالم

بل يفضي إلى الفوضى والظلم. ولو أن الإنجليز ذهبوا إلى بلاد إفريقيا وبدلاً من الاستيلاء عليها قالوا لأهلها لقد جئنا للنهوض بكم وتعليمكم، ثم علّموهم مبادئ الزراعة وأنشأوا لهم المدارس والمصانع وقاموا بتدريبهم على استثمار المال وتنميته وعلّموهم مبادئ التحضر والتهذيب، ثم رجعوا من عندهم قائلين: هذا بلدكم، لقد جئنا لخدمتكم، لعُدُّوا صادقين في دعواهم يقينا، ولقيلَ إنهم لم يبذلوا هذا الجهد إلا لوجه الله ولخير الإنسانية. ولكنّ ما فعلوه هو أنهم طردوا الأفارقة من أراضيهم وعقارهم واستولوا عليها، ثم أخذوا يقولون: إنما فعلنا ذلك للنهوض بالأفارقة ولمصلحتهم، وليس وراء ما نفعل بهم إلا دافع الشفقة عليهم.

سادسا: والمعنى السادس للدين هو العبادة، وهذا المعنى أيضًا ينطبق على هذه الآية، والمراد: لا تُشرِكوا بالله، بل أدّوا كل عبادة لوجه الله فقط.

سابعًا: والمعنى السابع للدين هو الورع، أي أعمال البر والتقوى، وعليه فالمراد من الآية: اتركوا الرياء والسمعة كلية وقوموا بأعمال الزهد والورع لمرضاة الله فقط. يجب أن لا تبغوا بعباءاتكم وعماماتكم ومشيختكم وكهانتكم وأسْقَفَتِكم تكريمَ الناس وطاعتهم لكم، بل يجب أن يكون زهدكم وعبادتكم ابتغاء قرب الله تعالى.

وهذا أمر لا يتوجه إليه المسلمون أنفسهم، دعْك عن الأمم الأخرى. فهم يصلّون ويصومون ويزكّون ويحجّون، لكن ليس ابتغاء وجه الله، بل لكي يكرمهم الناس ويقولوا إن فلانا يصلي كثيرا وفلانا من كبار الزُّهاد النُّسّاك. والحج أيضا يُعتبر علامة زهد، لكن في بلادنا أصبح الحج وسيلة للسمعة والشهرة. فمعظم الذين يحجّون يرون أن من واجبهم أن يكتبوا مع أسمائهم "الحاج". عندما ذهبتُ إلى الحج وجدت في السفينة التي سافرت بها شابًا كان يعتبر نفسه غيورا على الدين، فعندما علم أنني من الأحمديين استاء وأخذ يضرب يده بفخذه مرة بعد أخرى قائلا: لماذا لا تغرق السفينة التي يسافر بها هذا الأحمدي، مع أنها نفس السفينة التي كان هو يسافر بها، ولو غرقتْ لغرق معها حتما. باختصار، كان يبدي غيرة كبيرة على الدين، ولكني وجدتُه يتغنى بأبيات عشقية فاحشة جدًا

ونحن في طريقنا من مكة إلى منى أيام الحج. فاقتربت منه يوما رغم بغضه وحقده وقلت: أنت تحب الدين كثيرا، ولكني رأيتك تغنّي في "مِنى" أبياتًا فاحشة جدا. لماذا؟ فقال: الواقع أني مِن تجار مدينة "سُورَتْ" الهندية، ويعظِّم الناس الحجاجَ كثيرا عندنا. ولنا محلّ بيع بالجملة، وكان الناس يأتوننا من المناطق المجاورة بكثرة لشراء البضائع، ولكن في السنة الماضية ذهب صاحب المحلّ المجاور إلى الحج، وعلّق على محلّه لافتة مكتوب عليها: متجر الحاج فلان، فترك الناس متجرنا وتوجهوا إلى متجره ظنًّا منهم أنه عملٌ يُثابون عليه. فقال لي أبي: أيها الشقي، اذهبْ للحجّ وإلا سوف تصاب تجارتنا بالكساد. فجئت للحج، وعند عودتي سوف أكتب كلمةَ "الحاجّ" مع اسمي على لافتة محلّنا، فلن نُصابَ بالكساد بعد ذلك.

فلم أقُل للشاب شيئا عندها، لكنني تأسفت في قلبي على حاله إذ كان يغار على الدين لدرجة أنه كان لا يبرح يضرب فخذه بيده قائلا: لماذا لا تغرق السفينة التي يركبها الأحمدي، ولكنه جاء للحج بدون أن يدرك أن عليه أن يحجّ ابتغاء مرضاة الله، لا لأن يُسمى حاجًّا، فيعظّمه الناس ويأتوا إلى متجره بكثرة للشراء.

إذن، إن كثيرًا من الناس يقومون في الظاهر بأعمال الزهد والعبادة ابتغاء مرضاة الناس ومدحهم وقلوبهم خالية تماما من حب الله تعالى. ونجد عند النصارى أنهم يكرمون القسيسين تكريما عظيما، وكل كبار العائلات الأوروبية ينذرون أحد أولادهم لخدمة الكنيسة، ولكن ليس لأنهم يعظمّون المسيحية، أو لكي يفوز ابنهم برضا الله تعالى بعد أن يصبح قسيسا، إنما يفعلون ذلك خوفًا من أن تفقد أسرتهم نفوذها السياسي. ومن سوء حظ المسلمين أنهم لم يكرموا العلماء، فأهمل كبار القوم ضرورة تعلُّم الدين، ولكن الأوروبيين يكرمون القُسس جدا، لذلك يستغلّ كبار قومهم هذا الأمر سياسيا على الدوام مخافة أن يثور الناس ضدهم فيفقدوا نفوذهم السياسي. فلأن الناس لا يقومون بأعمال الزهد والعبادة أحيانًا إلا ليزدادوا عزًّا ونفوذًا بين القوم، لذلك يوصي الله المؤمنين ألا يدَعوا أفكار السمعة والرياء تتسرب إلى قلوبهم، بل يجب أن يكون رضا الله تعالى

هو الحافز وراء أعمالهم الصالحة كلها. على المرء أن يصرف عنايته عن المخلوق إلى الله تعالى، ويجعل أعماله الصالحة وَقْفًا لله تعالى، لأنه تعالى لا يتقبل من أعمال الإنسان إلا ما يقوم به ابتغاء وجهه تعالى، وكل عمل مشوب بشيء من الرياء يُردّ في وجه صاحبه، ويسبّب له العذاب بدلَ الثواب.

ثامنا: والمعنى الثامن للدِين هو العادة، وعليه فتعني هذه الآية: عليكم أن تطيعوا الله تعالى بحيث تصبح عاداتكم أيضا تابعة لمرضاة الله تعالى.

إن العبادة التي تتم بالعادة لا قيمة لها في الظاهر، فمثلا إذا كان المرء لا يصلي إلا لأن أبويه عوّداه على الصلاة فاعتادها، أو لا يصوم إلا لأن أبويه أكرهاه على الصيام فاعتاده، فعادته تُعتبر سيئة على العموم. ولكن يجب أن نتذكر أن العبادة التي تتم بالعادة نوعان: فأحدهما عبادةٌ تكون بدايتها بمجرد العادة، فمثلا يبدأ المرء عملاً من العبادة دونما تفكير وإرادة فيعتاده، أو يأمره غيره بذلك العمل فيقوم به من دون تفكير وتدبر إلى أن يعتاده، فهذه العبادة التي يقوم بها كعادة لا قيمة لها. ولكن الذي بدأ العبادة وغيرها من الأعمال الصالحة حبًا لله تعالى حتى أصبحت هذه الأعمال عادةً وجزءا لا يتجزأ من حياته وصدرت منه من دون إرادة وتفكير، فمثل هذه العبادة التي تتم كالعادة ليست كعبادة الشخص السابق، لأنه بدأ هذه العبادة واستمرّ فيها بخلوص النية حبًا لله وابتغاء مرضاته حتى صارت عادة راسخة فيه، وجزءا لا يتجزأ من حياته، والفعل الذي يصدر نتيجة هذه العادة لا بد أن يُسمّى ميزة، لأنه قام به بإرادة وبمجاهدة ابتغاءَ مرضاة الله، وقد تكرر منه هذا الفعل حتى اعتاده فأصبح جزءا من حياته. فهذه العادة لا تسمى جبرية ولا سيئة ولا بدون إرادة حتى تُعتبر لغوًا، بل هي عادة حسنة إذ كانت بدايتها بنية ابتغاء مرضاة الله تعالى. ومِن سنن الله تعالى أن الإنسان إذا عمل عملاً بلذّة وشوق على التوالي والتكرار صدر منه هذا العمل تلقائيا، ولذلك فإنّ العبادة التي يقوم بها هذا الإنسان كعادة لا تسمى عبادة تقليدية، بل تسمى منتهى الطاعة.

وهناك جانب آخر من هذا المعنى، وهو أن الإنسان يعتاد بعض الأعمال بحُكم محيطه. فبعض الناس مثلاً يعتادون شرب الشاي، وبعضهم يعتادون تناول الأطعمة الشهية، وبعضهم يعتادون لبس اللباس الجميل، فالله تعالى يقول لنا في هذه الآية أنكم إذا اعتدتم على شيء متأثرين بمحيطكم، فيجب أن تعتادوا ما يُرضي الله تعالى، ولا تعتادوا شيئا يثير سخط الله. وكأنها إشارة إلى أن على المؤمن أن يتجنب اللغو من العادات. لا بد للإنسان من أن يعتاد بعض الأشياء بتأثير محيطه، إذ ليس في الدنيا أحد لا يعتاد شيئا ما، لكن كثيرا من الناس لا يأخذون مما حولهم إلا عادة الأكل الشهيّ أو اللبس البهيّ أو العيش الهنيّ، بينما لا يأخذ بعضهم مما حولهم من الناس إلا الصلاح والتقوى والعبادة. فكلا الفريقين قد تأثر بما حوله، لكن الفرق أن الأول تأثر لراحة نفسه فقط، وأما الثاني فتأثر لوجه الله تعالى إذ أخذ مما حوله الصلاح والتقوى فقط. وكأن الذي قَبِلَ من الآخرين عادة الأكل اللذيذ أو اللبس الجميل قدّم مرآة نفسه للآخرين، أما الذي اعتاد برؤية الآخرين الصلاةَ والصومَ والصدقة والبرّ فقدّم مرآة نفسه أمام الله تعالى.

باختصار، يقول الله تعالى إنكم لا بد أن تعتادوا بعض الأمور بحكم عيشكم بين الناس، فاسعوا أن تعتادوا ما يرضي الله تعالى لا ما يرضي الناس. ومثاله كما قال الرسول ﷺ: عليك بغضّ البصر، فإذا وقع بصرك على امرأة من غير المحارم صدفةً فلا ذنب عليك، ولكن لا تُتْبِعِ النظرةَ النظرةَ وإلا لصرتَ آثما (ابن ماجه: كتاب النكاح ، باب ما يؤمر به من غض البصر). والحكمة في ذلك أن الإنسان إذا أعاد النظر إليها فيعيدها بإرادته، وأي عمل يقوم به الإنسان بإرادته فإنه يعتاد عليه شيئا فشيئا. فقوله تعالى ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني ألا تكرّروا ولا تعتادوا الأعمال السيئة، بل يجب أن تتكرر منكم تلك الأعمال التي توصلكم إلى الله تعالى، أي التي أمركم الله بها، أما ما نهاكم الله عنه فلا تعتادوه بتأثير محيطكم. وكأن الله تعالى يأمرنا أن نتحرر من التأثير السيئ لمحيطنا حتى لا نعتاد شيئًا سيئًا بتأثير الآخرين، ونقبل التأثيرات الحسنة منهم فقط.

الحق أن العادة ظلمة عظيمة، فهي تجعل المرء في بعض الأحيان متملقًا وجبانًا وكسولاً وتمنعه من إنجازات كبيرة. خُذوا مثلاً عادةَ التدخين والشيشة أو تعاطي الأفيون أو شرب الشاي أو استعمال "نَسْوار"♦، فالمعتادون على هذه الأشياء إذا خرجوا للجهاد لم يقدروا على الثبات فيه، بل تزعزعت أقدامهم حتمًا، لأن هذه الأشياء لا تتيسر لهم هناك. في أثناء الحرب يضطر الإنسان أحيانًا للجوع والفاقة أياما ويبيت في الغابات ويعيش على غذاء قليل رديء جدا. ولذلك فإن الذي يتعاطى الخمر أو الأفيون أو النرجيلة أو الشيشة أو "نسوار" لا يمكن أن يخرج للقتال بشجاعة؛ لأن عادته هذه تقف سدًا منيعًا دون هذه التضحية، إذ يفكر أنه سيعاني كثيرا بسبب هذه العادة لو اشترك في الحرب. إن أكبر شكوى أثارها الجنود في الحرب العالمية الأخيرة هي أنهم لا يجدون خمرًا ولا سيجارًا، وقد كبر حجم الكميات التي طالبوا بها لدرجة أن الضباط الإنجليز لم يستطيعوا سد حاجاتهم، ولم يكن وراء هزيمة السيد تشرشل في الانتخابات البرلمانية الأخيرة إلا أن الجنود كلهم صوّتوا ضده، إذ رأوا أن الحكومة التي لم تمدّ جنودها بالخمر والسيجار بكثرة وتسببت في معاناتهم لا تستحق البقاء والاستمرار. والحق أن الضباط الإنجليز كانوا معذورين في الواقع في عدم تحقيق مطالب الجنود هذه، فهل عليهم أن يجمعوا العتاد للحرب أم يصنعوا الخمر والسيجار ويبعثوها للجنود؟ ومن أجل ذلك يوصي الله المؤمنين ألا يعتادوا أي شيء إلا أعمال البر والذِّكر التي يرضى الله بها حتى لا يضطروا للخضوع أمام غيرهم، أو يقصروا في أداء الخدمات للأمة.

ثم يقول الله تعالى ﴿حنفاء﴾. واعلم أن ما ذكرناه عند تفسير قوله تعالى ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يشمل معاني لفظ "حنيف" المذكورة لدى شرح الكلمات

♦ "نسوار" يشبه "النشوق" الذي يستنشقه البعض، و"القات" الذي يمضغه أهل اليمن؛ غير أنه يكون تبغًا مطحونًا يضيفون إليه بعض المواد ويضعونه في الفم أو يستنشقونه في بعض مناطق الهند وباكستان وأفغانستان. (المترجم)

إلا معنى واحد، وهو أن الحنيف هو من يظل ثابتًا قائمًا على ميوله الحسنة. فكأن الله تعالى يقول هنا: نضيف إلى حُكمنا السابق أمرًا آخر وهو أن تظلوا ثابتين قائمين على الحسنات، وليس أن تعملوا الحسنات بحماس بضعة أيام، ثم تملّوها وتتركوها.

الواقع أن أكبر خطأ يقع فيه الإنسان أنه لا يداوم على الحسنات، إنما يعمل بها بضعة أيام ثم يتركها، مع أن العمل المقبول عند الله تعالى إنما هو ذلك الذي يداوم عليه صاحبه، وهو لا يستطيع الدوام على عمل إلا إذا كان ذا ثبات ومثابرة. إذن، فالله تعالى قد أمرنا هنا أولاً أن تكون طاعتنا وغلبتنا وحكمنا وسيرتنا وتدابيرنا وعباداتنا وخيراتنا وعاداتنا كلها لله تعالى، ثم يأمرنا بحكم آخَر: أنكم إذا عملتم بهذه الحسنات فكونوا ثابتين عليها متمسكين بها كي لا تَزِلَّ قدمكم من هذا المقام نتيجة الكسل، فتضيع حسناتكم كلها، إذ لا ينفع عند الله تعالى إلا العبادة التي يداوم عليها صاحبها. ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ دخل بيته مرة، فوجد في حجرة بعض زوجاته حبلاً معلقا بالسقف، فقال: ما هذا الحبل؟ فقالت: يا رسول الله، لقد علّقت هذا الحبل حتى إذا نعستُ في العبادة استندتُ له. فقال ﷺ: فُكُّوه، فإن الله تعالى يحبّ من العبادة ما داوم عليه صاحبه وإنْ قَلَّ، أما العبادة التي تؤدي إلى الملل أو يتركها صاحبها بعد بضعة أيام فهي غير مقبولة عند الله تعالى. (البخاري: كتاب التهجد)

يظن البعض أن هذا الحديثَ يعني أن على المرء أن تكون عبادته على منوال واحد لا تقلّ ولا تزيد، لكن هذا المعنى باطل بداهةً، لأن الإنسان أحيانًا لا يقدر على أن يعبد الله كثيرًا نتيجة مرض أو سبب آخر، بل قد يضطر لتركها أيضًا، والثابت عن النبي ﷺ أنه لم يستطع في بعض الليالي أن يصلي ثماني ركعات من النوافل التي كان يصليها عادة (مسلم: كتاب صلاة المسافرين). فثبت أن هذا الحديث لا يعني أن لا تزيدوا ولا تنقصوا من عبادتكم النافلة، بل المراد أنكم إذا بدأتم عبادة فواظبوا عليها، وليس أن تؤدوا النوافل بضعة أيام ثم تتركوها، أو أن تقوموا الليل كله في بضعة أيام، ثم لا تصلّوا حتى ركعتين نوافل في أي ليلة. وعلى

المؤمن أن يتجنب مرض عدم الدوام كلية، لأن الحسنة إنما هي ما داوم عليه صاحبه.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾. اعلم أن الله تعالى قد سبق أن قال ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، مما يدل دلالة واضحة على أن إقامة الصلاة في قوله تعالى ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ لا يعني الصلاة المعروفة فقط، إذ لو كان هذا هو المراد لما كان هناك داع لذكرها على حدة بعد ذكر العبادة ذكرًا واضحًا، حيث قال الله من قبل إن على المؤمنين أن يخلصوا لله وحده عبادتَهم من صلاة وصوم وحجّ وزكاة وغيرها. فثبت أن لإقامة الصلاة بعد ذكر العبادة هنا مفهومًا غير مفهومها المعروف، وهو نفس المفهوم الذي ذكرتُه مرارا في خطبي وخطاباتي، وبيانه كالآتي:

لا شك أن من معاني إقامة الصلاة أداؤها بكل شروطها. ولا شك أن من معانيها ما قد ركّز عليه المسيح الموعود عليه السلام كثيرا قائلاً إن المراد من إقامتها أن صلاة المؤمن تنهار مرة فيقيمها، فتنهار ثانية، فيقيمها، فتنهار ثالثة فيقيمها وهكذا دواليك.. أي أنه عندما لا يجد في صلاته الخضوع والخشوع والتركيز الكامل إلى الله تعالى فإنه يسعى لإصلاحها وتحسينها مرة بعد أخرى (ملفوظات، المجلد الرابع ص ٦٠٤-٦٠٥). لكن الواقع أن هذا المفهوم قد شمله قول الله تعالى من قبل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين﴾. والحق أننا لو نظرنا إلى معاني لفظ الإقامة نظرة شاملة لكان لإقامة الصلاة مفهوم زائد هو: أولاً: أنهم يروّجون الصلاة في العالم. في لغتنا أيضا يقولون إن فلانا روّج تقليدًا كذا. إذن فيتوقع الله تعالى من المؤمنين إقامة صلواتهم، أي أنهم لا يصلّون بأنفسهم بل يبيّنون محاسنها للآخرين ويحثّونهم على أدائها. فالذين لا يعلمون كلماتها يعلّمونهم إياها، والذين لا يعلمون ترجمة معانيها يعلّمونهم ترجمتها، والذين لا يصلّونها يحثّونهم على أدائها، والذين يصلّونها يرغّبونهم فيها أكثر. فكل واحد منهم يسعى لترويجها حتى تروج الصلاة بينهم رواجا قويا. وكل هذه المعاني تندرج في إقامة الصلاة.

وثانيًا: إن الله تعالى لا يأمرنا هنا بإقامة العبادة فقط، بل بأدائها جماعةً أيضا. ذلك أن الإسلام دين اجتماعي، أما الأديان الأخرى فهي فردية، فإذا قام أحد فيها بالعبادة منفردا اعتبروه من كبار النساك الزهاد العارفين، وأشادوا بصلاحه وقداسته وقربه ووصاله بالله تعالى. إنهم يركّزون على العبادة الفردية لدرجة أنهم إذا سمعوا أن ناسكًا يعبد في مغارة منذ أربعين سنة مثلاً، ذهب لزيارته كبار الباندات والقسيسين والرهبان وعامة الناس فوجًا بعد فوج، وقدّموا له النذور، وسجدوا له، وتوسلوا إليه بتذلل وتواضع باعتباره ناسكًا كبيرًا قادرًا على قضاء حاجاتهم، حيث ترك الدنيا و لم يزل يردد اسم الله تعالى في هذه المغارة وحده منذ أربعين سنة. لكن الإسلام لا يعتبر مثل هذا الإنسان مقرَّبًا عند الله تعالى. وهذا هو الفارق الكبير بين الإسلام وغيره من الأديان. إن الذي لا يصلي مع الجماعة فلا يعتبره الإسلام صالحا ومقربا، ولا يعظّمه، مهما قام بالعبادات، بل إن الذي يهمل إقامة الصلاة جماعةً يعتبره الإسلام ممن ليس له من الدين نصيب. إن الذي ينقطع عن القوم ولا يهتمّ بالأُمة وفلاحها ويجلس قابعًا في مكان منفردا فإنه يستحق العقاب الشديد من الله تعالى، دَعْك أن يُعَدّ من عباد الله الصالحين المقرَّبين. فمَن تعتبره الأديان الأخرى قديسًا بسبب عبادته منفردًا يعتبره الإسلام مطرودا من عند الله. الدنيا تعتبره مقربًا عند الله، أما الإسلام فيعتبره محروما من قرب الله. ذلك أن دين الإسلام يأمر المؤمنين بإقامة الصلاة، أي ألا يؤدّوا الصلاة فقط، بل ينبغي أن يصلوا مع الجماعة، ولا يصلحوا أنفسهم فقط، بل يجب أن يساندوا الأمة كلها، ويرفعوا مستوى روحانية أفرادها كلهم، ولا يهربوا من القوم بل يجب أن يكونوا معهم، ويحافظوا على أخلاقهم وروحانيتهم بحذر ويقظة.

والحكم الثاني في هذه الآية هو قوله تعالى ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾. واعلم أن الأمر بإيتاء الزكاة قد ورد في القرآن بعد إقامة الصلاة دومًا، وفيه إشارة لطيفة للغاية، ألا وهي أن المرء إذا لم يطّلع على ما يوجد في أمته من فقراء وبؤساء فلا يمكن أن يقدم لهم أي مساعدة. فأَنَّى لَمن يردد سبحان الله سبحان الله قابعًا في مغارة جبل ليل نهار أن يعرف أن هناك جياعًا يموتون فاقة، وفقراء لا يجدون ثيابًا، ومساكين

يتكففون الناس من أجل قرش، وأولادًا محرومين من العلم لعدم المال. وما دام هذا العابد غيرَ مطّلع على أحوال ذوي الحاجة فكيف يمكن أن يسعى للنهوض بهم؟ إنما يسعى لمساعدة الفقراء وللنهوض بالمساكين إذا كان على علم أن في قومه فقراء ومساكين، وأن من واجبه أن يطعم الجياع ويسقي العطشى ويكسو العراة ويداوي المرضى، ولكنه لن يعرف ذلك إلا إذا اعتاد أداء الصلاة جماعةً في المسجد. عندما يحضر المسجد يجد أنه يصلّي على يمينه شخص سليم الصحة جميل اللباس تفوح منه رائحة العطر، وعلى يساره شخص ذو أسمال بالية لا تُحتمل رائحة جسمه الكريهة، وقد علت التجاعيد وجهه. وعندما يرى هذا المشهد يصاب قلبه بالكرب الشديد ويقول: إن من واجبي أن أنفق على فقراء قومي وأعمل على تنفيس كرباتهم. أو إذا رأى في المسجد مثلاً شابًا في ثياب رثّة يبلغ العشرين أو الخامسة والعشرين من عمره، ولكنه نحيف هزيل قد جحظت عيناه من شدة هزاله، فلا بد أن يتقدم إليه ويقول له: كيف حالك؟ لماذا أنت في هذه الحالة البائسة؟ فيقول له: إني مريض، وليس عندي طعام وشراب. فيقول له: لكنك شاب، فلماذا لا تكسب بيدك؟ فيقول مثلاً: إنني خبير بأعمال النجارة، ولكن لا أقدر على شراء أدواتها، أو إني أتقن البناء أو الحياكة أو الحدادة، لكنني لا أقدر على شراء الأدوات اللازمة. فيقول هذا في نفسه: من واجبي أن أساعد فقراء أمتي وأعمل على دفع معاناتهم لكي يعيشوا بكرامة.

فالحق أن الإنسان لن يجد حافزًا لإيتاء الزكاة إلا بإقامة الصلاة. لقد فتح الإسلام بأمره بأداء الصلاة جماعةً خمس مرات يوميًا طريقًا سهلاً للإنسان للاطلاع على أحوال أفراد الأمة. كيف يمكن للورد الإنجليزي أن يطلع على أحوال أمته؟! فهو يعيش في بيته في بحبوحة العيش بين خدم ينتظرون إشارته لخدمته لابسين أزيائهم الخاصة، ويأكلون على خوانه أكثر مما يحتاجون حتى يصابوا بالسمنة. وإذا ذهب إلى النادي وجد حوله أناسًا مثله من الشريحة الراقية من المجتمع، فكيف يمكنه أن يطّلع على حال فقراء أمته. أما المسلم الذي يصلي في

المسجد جماعةً خمس مرات يوميًا فيرى هنالك أفراد مجتمعه خمس مرات كل يوم، فيطلع على أحوالهم بسهولة، فيتذكر ما يجب عليه للنهوض بأمته.

وأما قول الله تعالى ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ فهناك مضاف محذوف وتقدير الجملة هو: "ذلك دينُ الملةِ القيّمةِ". والدين هنا بمعنى الطريق أو الحال أو الشأن، والمعنى: هكذا يجب أن تكون حال وطريق الملة التي تظلّ قائمةً في الدنيا. وحيث إن القيم يعني المتولي أيضًا، فقوله تعالى ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ يعني: أن الأمة المتولّية أي التي يولّيها الله أمرَ الناس يجب أن يكون هذا شأنها، وإلا لن تقدر على أداء واجبها.

إذن للآية معنيان: أوّلُهما: أن هذه علامات الأمة التي تظل قائمة في الدنيا. وثانيهما: أن من واجب الأمة التي يجعلها الله تعالى واليةً على الناس أن تتحلى بهذه المزايا.. أي أن الأمة التي تتحلّى بهذه الخصال تصير متوليةً أي حاكمة في الدنيا.

الواقع أن الله تعالى كان قد أشار في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إلى أمرين. فإقامة الصلاة إشارةٌ إلى أن المؤمنين يظلّون في صلح مع الله تعالى ويؤدون حقوقه بكل أمانة، أما إيتاء الزكاة فإشارةٌ إلى أنهم يحسنون إلى بني جنسهم ويتحمسون لخدمتهم ويؤدون حقوقهم باهتمام بالغ. أما الآن فقال الله تعالى ﴿وَذلك دِينُ القَيِّمَة﴾.. أي أن الأمة التي تريد أن تبقى قائمة في الدنيا عليها أن تتبع هذا الطريق المذكور آنفًا.. أي أنهم إذا كانوا في صلح مع الله تعالى ومع العباد أيضا فلن يأتي عليهم الدمار. إنما يقع الدمار بالأمم حين يُسخطون ربهم، فيتعرضون للعذاب والكوارث، أو حين يثيرون الناسَ ضدهم، فتقع أحداث التمرد والسطو والقتل وإراقة الدماء في البلاد. لماذا يقع العذاب والطاعون والزلازل في العالم؟ إنما سببه أن الناس يفسدون علاقتهم مع الله تعالى. ولماذا تقع الحروب وأحداث القتل وسفك الدماء بين الناس؟ إنما سببه أن بعضهم يظلمون الآخرين، وبماطلون في

أداء حقوقهم ويسوّفون، وعندما يفوق الوضع احتمالهم تبدأ الاشتباكات. هذان من أهم أسباب الفساد في العالم: إفساد العلاقة مع الله أو مع العباد. ولذلك يقول الله تعالى إن الأمة إذا اعتنت بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكانت في صلح مع الله وصلح مع العباد، لم تتعرض للدمار، إنما يحل الدمار حين يُفسد الناس علاقاتهم مع الله فيتعرضون للعذاب، أو يفسدون علاقتهم مع العباد فتقع بينهم الحروب والقتال. ما هي الرسالة التي أتى بها محمد رسول الله ﷺ للعالم؟ إنما هي: كُونوا في صلح مع الله وصلح مع العباد تكونوا في مأمن من الانحطاط والزوال. وأيُّ شيء في هذه الرسالة دفَع الناسَ إلى معارضته ﷺ؟ إنه لم يدعُهم إلا إلى ما هو خيرهم، ولكنهم بدءوا الحرب ضدّ محسنهم هذا بدلاً من أن يشكروه.

ونظرًا إلى المعنى الثاني للقيّمة سيعني قوله تعالى ﴿وَذلك دِينُ القَيِّمَة﴾ أن الأمة التي يجعلها الله تعالى متولية على الناس يجب أن تسلك هذا الطريق، وإلا فتُعتبر مقصِّرة في أداء واجبها تقصيرًا فادحًا.

إذن، فبناءً على أحد معاني القيمة تكون هذه الآية إشارةً إلى المحاسن الذاتية للأمة، وبناءً على المعنى الثاني للقيمة تكون إشارةً إلى المحاسن النسبية للأمة. فالقول إن الأمة التي تسلك الطريق السليم وتبقى قائمة في الدنيا وتنجو من الدمار تتحلى بهذه الخصال، لقولٌ يشير إلى محاسنها الذاتية، أما القول إن الأمة التي يجعلها الله متولّية وحاكمة على الناس عليها أن تتحلى بهذه المحاسن وإلا تعتبر مقصرة في أداء واجباتها تجاه الحكم، فهو إشارة إلى محاسنها النسبية.

المؤسف أن المسلمين نبذوا هذه الأخلاق بعد وفاة الرسول ﷺ بزمن قصير، وبقدر ما تخلّوا عنها خذلهم الله تعالى. واليوم هناك فرصة للأحمدية لإرساء هذه الأخلاق مرة أخرى، ولكن إرساءها بشكل دائم مستحيلٌ ما لم نرسِّخ القرآن الكريم في عقول الناس بقوةٍ مرةً بعد أخرى، وما لم يصبح القرآن حيًّا في الأمة كلها.

لقد أثار القسيس "ويري" هنا اعتراضا عجيبا، فهو أوّلاً قد ترجمَ قول الله تعالى ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾.. بأنه ذلك الدين الحق، ثم بناءً على ترجمته هذه قال كان محمد يظن أن الإسلام واليهودية والمسيحية دين واحد، أي أن تعليم هذه الأديان الثلاثة واحد، ثم قال: ذلك دين الأمم الثلاث. وكأن "ويري" يفسر قوله تعالى ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ بأن دين الناس واحد منذ آدم إلى اليوم –وهذا ما يعتقد به بعض جهلة المسلمين– ثم يقول: وهذا الأمر باطل، وهكذا قد قدّم محمد بنفسه دليلا على كونه نبيا كاذبا! (تفسير القرآن لـــ "ويري")

والردّ الأول على "ويري" هو أنه قد ترجم هذه الآية ترجمة خاطئة. لا شك أنه قد أخذ ترجمة المستشرق "سَيل"، ولكنها ستُنسَب إليه لأنه أخذ منه باعتبارها صحيحة (THE KORAN; BY SALE V. 2 P. 494). والواقع أنّ قوله تعالى ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ لا يعني: ذلك الدين الحقّ، بل معناه: ذلك دينُ الأُمة التي من شأنها أن تبقى قائمة، أو ذلك حالة الأمة التي من شأنها أن تبقى قائمة. ذلك أن كلمة ﴿القيِّمة﴾ ليست صفةً للدين في الحقيقة، كما لا يمكن أن تُعتبر وصفًا للدين بحسب قواعد العربية، لأن الدين مذكّر والقيِّمة مؤنّث، ولا يمكن وصف المذكر بصفة مؤنثة. إذن، فلا بد من اعتبار حذف محذوف هنا بحسب قواعد العربية، وهذا المحذوف هو الملة وما يشابهها من كلمة نظرًا إلى السياق، ولذلك قلتُ إن تقدير الجملة هو كالآتي: ذلك دينُ الملة القيّمة.

والرد الثاني هو أنه لا يثبت من هذه الآية أن القرآن يعتبر هذه الديانات دينا واحدا، بل قد صرح الله تعالى في هذه الآية بكلمات هي أشد وضوحًا وصراحة مِن أيّ آية أخرى قرآنية بأن دين اليهود والنصارى مختلف عن الإسلام، حيث وصف القرآن الكريم بكونه ﴿صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ وبأنه فيها ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾. الغريب أن القرآن الكريم يركز في هذه الآية على ما يوجد بين الإسلام وغيره من الأديان من اختلاف كبير، ومع ذلك يزعم "ويري" أن القرآن قد أعلن هنا أن الإسلام واليهودية والمسيحية كلها دين واحد.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٨

التفسير: كانت (مِن) في قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ بيانية في رأيي، أما هنا في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فهي تبعيضية، والكفر المشار إليه هنا هو ليس ما يكون عن جهل، إنما هو ما يكون عن علم وعناد، لأن الله تعالى يخبر هنا أن عقوبة هؤلاء الكافرين دخول النار خالدين فيها، وهذه العقوبة دليل على أن الحديث هنا إنما هو عن الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين كفروا عمدًا بعد أن قامت الحجة عليهم، والذين لن يقبل الله منهم أي عذر، ولذلك قال الله إنهم يدخلون نار جهنم خالدين فيها.

ثم يقول الله تعالى ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾، بينما قال عن المؤمنين ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾. والشر والخير هنا صيغة تفضيل، وأصلهما أَشَرُّ وأَخْيَرُ، وسقطت الهمزة لكثرة الاستعمال، فشَرُّ البريّة يعني أن هؤلاء الكافرين يكونون أسوأَ المخلوقات، وخيرُ البريّة يعني أن المؤمنين هم أفضل المخلوقات.

لقد بينتُ من قبل أنه كلما ذكر القرآنُ أهلَ الكتاب والمشركين قصَد بهما كلَّ العالَمِ غير المسلم، إذ ينقسم إلى قسمين: أهل الكتاب والمشركين. وما دام ليس في الدنيا إلا فريقان اثنان من الأشرار وهما أهلُ الكتاب والمشركون، فالسؤال: مَن هم هؤلاء القوم الذين يكون أهلُ الكتاب والمشركون أسوأ منهم؟ ولما كانت في العالم فئة واحدة من المؤمنين، فمَن هم هؤلاء القوم الذين قيل هنا إن فئة المؤمنين تكون أفضل منهم؟ لا شك أن الأنبياء في الماضي كانوا يُبعثون إلى أقوامهم الخاصة، وكلّ أمة كانت ملزمة بالإيمان بنبيها ولم تكن بحاجة للإيمان بنبي قوم آخرين، فلو قيل

عندها إن المؤمنين أفضل من جميع المخلوقات، لفُهم أن المؤمنين بالنبي زرادشت أفضل من المؤمنين بالنبي كرشنا ومن المؤمنين بالنبي موسى مثلاً. ولكن عند نزول القرآن لم تكن في العالم إلا جماعة واحدة من المؤمنين، فالسؤال ينشأ هنا: مَن هم هؤلاء الذين تكون جماعةُ المؤمنين الآن أفضلَ منهم؟ وهذا سؤال كبير ينشأ هنا ولا بد من الإجابة عليه.

أما الجواب فاعلم أن هاتين الآيتين تعقدان مقارنةً بين أمة الرسول ﷺ وأمم الأنبياء السابقين وبين أعداء محمد ﷺ وأعدائهم، فقال الله فيهما ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ و ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.. أي أن الذين كفروا بمحمد من أهل الكتاب والمشركين هم أسوأ من أعداء الأنبياء السابقين كلهم كموسى وعيسى وكرشنا وزرادشت وغيرهم، وأن الذين آمنوا بمحمد هم أفضل من أمم الأنبياء الآخرين كلهم. ذلك أن محمدا ﷺ قد جاء بالشريعة التي فيها كتب قيمة وتحتوي على صُحُف مطهرة وتشتمل على أفضل تعاليم الأنبياء السابقين كلهم. لقد عملتْ أمةُ نوح بتعليمه فقط وأمةُ موسى بتعليمه فقط وأمةُ عيسى بتعليمه فقط وأمةُ كرشنا بتعليمه فقط وأمةُ زرادشت بتعليمه فقط، أما أمة محمد ﷺ فعملتْ بتعاليم كل هؤلاء الأنبياء أيضا، كما يشير إلى ذلك قولُه تعالى ﴿فيها كُتُبٌ قَيِّمَة﴾ -أي أن القرآن تضمنَ كل التعاليم القيمة من الشرائع السابقة- والأمةُ التي عملتْ بتعاليم كل الأنبياء السابقين لا بد أن تكون أفضل الأمم السابقة كلها. لنفترضْ أن زيدًا يملك جنيهًا، وبكرًا جنيهين، وعمْرًا أربعة جنيهات، وخالدًا ثمانية جنيهات، وحكيمًا ستة عشر جنيهًا، أما عبد الله فيملك اثنين وثلاثين جنيهًا، فلا شك أن عبد الله يملك أكثر مما عند الباقين كلهم. وحيث إن الله يخبر أن محمدا ﷺ ﴿يَتْلو صُحُفًا مُطَهَّرَة﴾ ويخبر أن القرآنَ صحف مطهرة فيها كتبٌ قيمة، لذلك يقول تعالى هنا ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.. أي أن الأمة التي آمنت بمحمد هي أفضل من باقي الأمم كلها، لأنها عملت بتعاليم الأنبياء السابقين كلهم. ثم وصف الله تعالى أعداءَ الرسول ﷺ بأنهم شر البرية، ذلك لأن أعداء نوح أو موسى أو عيسى أو كرشنا أو زرادشت لم يكفروا إلا بتعليمه هو وحده، أما

أعداء محمد فقد كفروا بتعاليم نوح وموسى وعيسى وكرشنا وزرادشت وغيرهم من الأنبياء الذين أتوا في مختلف العصور والذين يبلغ عددهم مئة وأربعة وعشرين ألف نبي، لذلك صار أعداء محمد شرَّ البرية أي أسوأ من جميع المخلوقات. فقوله تعالى في وصف القرآن بأن فيه ﴿صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ وأن ﴿فيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ يحتّم أن الكافرين بمحمد ﷺ هم ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ والمؤمنين به هم ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

التفسير: لقد قال البعض إن عدن في قوله تعالى ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ هو اسم مكان (روح المعاني). لكن هذا ليس بصحيح، بل ﴿عدن﴾ يعني الدوام والخلود (الأقرب)، والمراد من الآية أنهم يجدون عند ربهم جناتٍ أبدية تجري خلالها الأنهار. فكل جنة يكون لها نهر، ويكون لأهلها حقّ التصرف الكامل عليها.

ثم يقول الله تعالى ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. لماذا رضي الله عنهم؟ لأنهم عملوا بقوله تعالى ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ على أحسن وجه. فما داموا قد تحلّوا بهذه الخصال فكيف لا يرضى الله عنهم ولا يرضون عنه؟ لقد عاملهم الله معاملة، وهم بالمقابل عاملوه بمعاملة.

إن كل ما ينشب في العالم من حروب دينية ومفاسد بسبب الاختلافات الدينية إنما سببه أن الناس لخطئهم يسمّون المعاملة من طرف واحد دينًا، مع أن الدين الحقيقي إنما هو أن يرضى العباد عن الله ويرضى الله عن العباد.. أي أن تُكسبهم أعمالُهم رضا ربهم، أما ربهم فيُمطر عليهم أنواره وبركاته. ما قيمة دين يكون أهله

يصلّون ويصومون ويزكّون ويحجّون، ومع ذلك لا يكلّمهم الله، بل يلتزم الصمت تجاههم. ولله دَرُّ القائل:

اُلفت کا تب مزا ہے کہ دونوں ہوں بےقرار
دونوں طرف ہو آگ برابر لگی ہوئی

أي أن علامة الحب الحقيقي أن لا يقرّ للمتحابَّين القرار، وأن تكون نار الحب ملتهبة عند الاثنين على سواء.

هذا ما يبينه الله تعالى هنا بقوله ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، حيث أخبر أنه ليس من الدين أن يلتاع العبد بحب الله تعالى ويضطرب في هجره، ويفيض قلبه بأماني وصال حبيبه ويقضي الليالي والنهار في بكاء وابتهال على فراقه، بينما يكون الله تعالى صامتًا في السماء لا يشنّف آذان العبد بصوته العذب، أو أن يظل الله يدعو العبد إليه، بينما يظل العبد غير مكترث لحبه تعالى. هذا لا يحدث في العشق الحقيقي أبدًا. إن الحب الصادق يقتضي أن تكون النار ملتهبة عند الطرفين، فيذوب العبد حُبًّا لله تعالى من ناحية، ومن جهة أخرى يضطرب الله على عرشه حبًّا لعبده. هذا هو مقام ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. فالحق أن الله تعالى قد بين هنا علامة الدين الحقّ. فلا قيمة لدينٍ يكون فيه الحب من طرف دون الطرف الآخر، ومثاله دين النصارى، فمهما دعاهم الله تعالى فلن يستجيبوا له إذ اعتبروا الشريعة لعنةً (غلاطية ٣: ١٢- ١٣)، وما دامت لعنةً عندهم فكيف يعملون بها، وكيف يجنون ثمار العمل بها؟ أما اليهود وكذلك مسلمو هذا العصر فإذا تحرّيت أمرهم وجدتَهم يمرّرون حبّاتِ المسبحة ويحكّون أنوفهم في العبادات، ولكن الله تعالى لا يحرّك لهم ساكنًا، مع أن الدين يعني أن يعبد الإنسان ربه وينال منه الجواب، ويرضى الرب عن العبد والعبد عن الرب.

أما قوله تعالى ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ فالواقع أن الله تعالى قد أنزله كي لا يظن المسلمون في المستقبل أن مقام ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ خاص بالصحابة فقط. من المؤسف أنه رغم هذه الآية الصريحة ظن المسلمون أن هذا المقام خاص

بالصحابة ولن يبلغه أحد بعدهم، مع أن الله تعالى قد أعلن هنا بوضوح: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.. أي لا خصوصية للصحابة في ذلك. لقد تحلّوا بالصفات التي أمروا بها فوصلوا هذا المقام، والآن لو تحلى بها غيرهم فنحن مستعدون لأن نهب له إياه. هذا المقام ليس خاصا بفئة معينة، بل هو خاص بصفات الله الحسنة، فمن تحلى بها منحناه إياه فورا.

إذن، فهذه الآية تزيل سوءَ فهم كبير وقع فيه المسلمون اليوم، حيث قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.. أي أننا سنحقق وعْدنا هذا لكل من يعمر قلبه بخشية الله ويعمل بأحكامه بحماس. فليتقدم كلُّ مَن يريد هذا الإنعام ويأخذه منا، لأن باب رضانا مفتوح للجميع. نحن مسؤولون عن إيفاء ما علينا، وأنتم مسؤولون عن إيفاء ما عليكم. ينبغي أن تتحلوا بخشيتنا وترضوا عنا، ونحن نعدكم برضانا عنكم. وكأنه تعالى يقول إن الخطوة الأولى يجب أن تُتَّخذ من قِبلكم، وسنتّخذ الخطوة الثانية حتمًا. فلا تظنوا أن هذا الإنعام خاص بالصحابة فقط، بل الحق أن كل من عمر قلبه بخشيتنا، فتحنا له باب وصالنا، وسيظل هذا الباب مفتوحًا لكل طالب.